كتاب الدوحة

توفيق الحكيم

يوميات نائب في الأرياف

تقديم: أحمد حسن عوض

يوميات نائب في الأرياف

تأليف: توفيق الحكيم

كتاب الدوحة 16

يوزع مجاناً مع العدد 59 من مجلة الدوحة سبتمبر 2012

يوميات نائب في الأرياف

تأليف: توفيق الحكيم

النـاشر :
وزارة الثقافة والفنون والتراث – دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

إخراج وتنفيذ : القسم الفني – مجلة الدوحة
لوحة الغلاف : محمد نـاجي (1888 – 1956) – مصر

يوميات نائب في الأرياف

تأليف: توفيق الحكيم

تقديم: أحمد حسن عوض

توفيق الحكيم
نشوة الفن وعمق الحياة

أحمد حسن عوض

توفيق الحكيم هو العلم الثالث من أعلام ثقافتنا العربية بعد العقاد وطه حسين، وقد أثرى ذلك الثالوث العظيم حياتنا الثقافية والفكرية والأدبية بإبداع بالغ الغنى، متعدد، خصب العطاءات، ومتنوع الاتجاهات.

غير أن ما يميز الحكيم، الذي تمر هذه الأيام ذكرى رحيله الخامسة والعشرون، عن صنويه الكبيرين أنه كان الأكثر تمثلاً لروح الفنان المنطلقة التي لا تبالي بالقيود والأسرع استجابة لأنماط الفن المختلفة والأعمق تفاعلاً مع أجناسه الحديثة بتجلياتها اللغوية والسردية والمسرحية والتشكيلية والموسيقية، بعد أن شاءت له الأقدار أن يخالط أهل الفن في مصر في شبابه المبكر، ثم يسافر إلى فرنسا ليرتشف عصارة الفن الرائق وينهل من مذاقاته الثرية، ويرتوي بها حتى الثمالة.

في حين لم يسافر العقاد إلى أوروبا وكان تمثله لحضارتها عن طريق الاطلاع وقراءة الكتب التي كانت تأتيه من الخارج، بينما لم يستطع طه حسين بسبب قيوده الخاصة وبنيته الأزهرية أن ينفعل باتجاهات الفن المتنوعة في أوروبا كما انفعل بها الحكيم.

وما يميز الحكيم أيضاً عن أبناء جيله من الأدباء والمفكرين أنه لم يبن شهرته الأدبية على الانضمام للأحزاب السياسية المصرية بل يكاد يكون الوحيد إلى جانب يحيى حقي وحسين فوزي الذي ظل محافظاً على موقع الفنان والمفكر المستقل بعيداً عن ألاعيب السياسة وتقلباتها وصراعاتها.

ولعل استغراق الحكيم في محبة الفن على اختلاف تجلياته ووسائطه النوعية، فضلاً عن عدم خوضه غمار الحياة الحزبية المصرية، ودفاعه عن حرية الفنان والمفكر وضميره الفردي الذي ينبغي أن يظل بمنأى عن هيمنة أية سلطات، هو ما يعد من أبرز العوامل التي ألصقت به لقبه الشهير «أديب البرج العاجي» وهي قضية تحتاج إلى مناقشة عميقة سنعود إليها بعد أن نستعرض مؤثرات الفن الأولى في مرحلتي الصبا والشباب المبكر لدى توفيق الحكيم.

مؤثرات أولى:

إذا كان الفيلسوف الألماني الشهير جدامر يقول إن المرء لا يستطيع أن ينفلت من أسر انحيازاته الأولى فإن هذه المقولة تكاد تتجسد تماماً في شخص توفيق الحكيم الذي هيأت له المصادفات القدرية أن يتعلق تعلقاً جارفاً بمؤثرات الجمال الفني المختلفة، وهو أمر لم يكن ليتحقق لو لم يُتح للحكيم قدر من العزلة التي وفرها له وضعه الطبقي المختلف عن أقرانه من الصبية الصغار فقد كان أبوه إسماعيل أحمد الحكيم من الذين اجتهدوا في التعليم سنة بعد سنة حتى تخرج من مدرسة الحقوق وعمل وكيلاً للنيابة ثم قاضياً وكان يكتب الشعر في شبابه المبكر ويتمتع بقدر من الثقافة العميقة التي مكنته من أن يؤسس «مجلة الشرائع» مع زميليه أحمد لطفي السيد وإسماعيل صقر. وكان زميلاً أيضاً لعبد العزيز فهمي وقاسم أمين وقد تزوج هذا الأب من فتاة من أصل تركي حرصت على أن يكون بيتها مكتسياً بالطابع الارستقراطي المنضبط وفي هذا الجو المتسم بقدر من التربية القاسية والعزلة الإجبارية الخاصة نشأ الطفل توفيق الحكيم الذي نجحت أمه في إبعاده عن جيرانهم من

أبناء الفلاحين. ويبدو أن الحكيم كان مهيئاً بطبعه لهذا الانفراد منذ طفولته، إذ كان يميل إلى الألعاب الفكرية والأنشطة الذهنية أكثر من انشغاله بالجري واللعب كأغلب الأطفال في سنوات عمرهم الأولى.

ومن ثم فإن سعادته الذاتية لم تتحقق في العالم النمطي للعب الأطفال بقدر ما كان تناغمه الاجتماعي يتحقق في مستويات أعمق من أنماط التواصل الجمالي.

وكان أول انفعال له بالجمال الفني يوم أحضروا له شيخاً يحفِّظه القرآن ومبادئ القراءة والكتابة، وكان هذا الشيخ كما يحكي الحكيم في سجن العمر «صاحب صوت جميل مؤثر وكان الإعجاب بصوته حافزاً لي على محاكاته.. وحفظ ما يلقنني من آيات بصوت جميل لأتلوها مثله ويظهر أنه كان لي مثل هذا الصوت... إذ كنت أسمع من يطريه ويثني عليه، فيزيدني إقبالاً على التلاوة وتجويداً لها... وشعرت لأول مرة باللذة الفنية... ذلك الذي نصفه اليوم بإحساس الفنان وهو يقوم بعمل فني».

ثم اتخذ شعور الحكيم بالفن شكلاً آخر عندما شاهد مولد سيدي إبراهيم الدسوقي بكل طقوسه المبهجة التي وصفها بأنها نوع من الكرنفال الساذج، ولكن تأثيرها على نفسه في تلك السن كان عجيباً، على حد قوله، لأن ذائقته الفنية كانت قد تهيأت لتصبح أكثر استعداداً للاهتمام الحقيقي بالفن في صورته المباشرة عندما شاهد إحدى الفرق التي كانت تسمى باسم جوقة الشيخ سلامة حجازي وتقلده وتطوف برواياته في الأقاليم. وكان من حظ الحكيم أن شاهد مسرحية «شهداء الغرام» روميو وجولييت مطعمة بالقصائد والألحان الشرقية، وبالرغم من أنه لم يستوعب دلالة العمل المسرحي لصغر سنه فقد ظل منبهراً بملابس الممثلين البراقة، مأخوذاً بالأناشيد والألحان، مستمتعاً بمبارزات السيوف.

ويبدو أن هذه الحالة المسرحية الغائمة ظلت تناوش خيال الطفل وتغذي وجدانه مشكلة انحيازاً جمالياً مبكراً ما لبث أن تجسد في محبة الحكيم البالغة

لفن المسرح وإيثاره على غيره من الفنون وتأليفه أكثر من مئة مسرحية بعد أن تعمقت تجاربه بالطبع، وأتيح له أن يخالط أهل المسرح في مصر، ثم يسافر إلى باريس ليستبطن التجارب المسرحية الأوروبية مشاهدة وقراءة.

على أن هذا الولع الكرنفالي المبكر قد مازجه ولع آخر بتجارب الحكي القصصي التي كان يحكيها له خادم يعمل لديهم صباحاً ويذهب ليلاً إلى مقهى بلدي ليستمع إلى شاعر الربابة ثم يعود ويقص عليه قصة أبي زيد الهلالي ودياب بن غانم والسفيرة عزيزة، وكانت هذه القصص تقع من نفس الطفل توفيق موقعاً حسناً ويمضي هو وخادمه أوقات العصر كلها يمثلان ويتبارزان بالأعواد الخشبية.

ولعل هذه «المبارزات التمثيلية» المصحوبة بالأداء التمثيلي المتقمص لشخوص الأبطال هي التي تحولت بفعل الزمن والمضي في سنوات التعليم إلى «المطارحات الشعرية» المعتمدة على قوة الذاكرة وملكة الإلقاء الشعري، التي كان يتبارى بها الحكيم مع أقرانه، وما لبثت تلك المطارحات أن تحولت إلى لون من ألوان اللعب التمثيلي الذي كان يقوم به بعد أن انتقى اثنين من زملائه المبرزين في الإلقاء.

ثم تحول الأمر من مرحلة «الارتجال والمحاورة والإلقاء» إلى مرحلة «التأليف» التي تطوع بها الحكيم وأخذ يفصِّل دور البطل على مقاسه، ويحشد له المواقف المهمة والعبارات الفخمة، وسرعان ما أصبح لدى الحكيم وصديقيه روايات مؤلفة ومسرح صغير وجمهور يشاهدهم من الزملاء.

وإذا كان حكي «الخادم» المصحوب بالأداء التمثيلي لقصص شاعر الربابة هو الذي حبّب الحكيم في القصص الشعبي والتمثيل المصاحب فإن حكي الأم المشوق المصحوب بالتعليق والشرح لقصص ألف ليلة، وعنترة، وحمزة البهلوان، وسيف بن ذي يزن، والروايات المترجمة بأقلام الشوام هو ما جعل الحكيم شغوفاً بالمعرفة يسعى للبحث عن القصص والروايات ليقرأها بنفسه.

وبعد ذلك انجذب إلى الرسم، وأحبه واجتهد ليتفوق فيه لأنه كما يقول كان

يملؤه سروراً داخلياً غريباً مثل الذي كان يحسه وهو يقرأ القرآن الكريم بترتيل جميل.

وبالرغم من أن الحكيم لم يستمر طويلاً في ممارسة الرسم فإن موهبة التذوق الفني للوحات كبار الفنانين ومنحوتات كبار المثّالين ظلت تنمو مع الأيام مؤشّرة على أحد الانحيازات الأولى للطفل الموهوب، الذي طاف، بعد أن أصبح شاباً، بالمعارض والمتاحف في باريس، وكان يخصص يوم الأحد من كل أسبوع ليقضي يوماً كاملاً في متحف اللوفر يتأمل فيه ويدرس حجرة واحدة أو قسماً واحداً واقفاً بالساعات الطوال أمام تمثال أو لوحة، وكان من ثمرة تلك التأملات التحليلية آراء خصبة في تذوق اللوحات ومقارنات بين مدارس النحت المختلفة مثل النحت الفرعوني والنحت الإغريقي وغير ذلك من الأمور التي تخص الفن التشكيلي.

بل إن موهبة «التذوق الفني» لدى الحكيم كانت أحد الدوافع الإبداعية لكتابة مسرحيته (بجماليون) التي يقول في مقدمتها: «ولعل أول من كشف لي عن جمالها تلك اللوحة الزيتية بجماليون وجالاتيا بريشة رواكس المعروضة في متحف اللوفر.. وما إن وقع بصري عليها منذ سبعة عشر عاماً، حتى حركتْ نفسي فكتبت وقتئذ قطعة (الحلم والحقيقة) وكنت آمل أن أعود إليها فأضع كل ما خامرني منها في عمل أكبر وأرحب».

ومثلما أحب الحكيم الرسم قديماً وتحول انفعاله الجمالي به من الإنتاج إلى التذوق فقد تحركت نزعته الفنية الكامنة إلى محبة (الموسيقى) بعد أن توطدت أواصر الصداقة بين أمه والأسطى حميدة العوادة المطربة التي كانت تنزل ضيفة على الأسرة في الإسكندرية والقاهرة مع المقربات من تختها ولم تكن تبخل عليهم بأغانيها وتقاسيمها، وقد حكى الحكيم عنها في «سجن العمر» قائلاً:

«كان صوتها يشجيني وحفظت كثيراً من الأغاني التي كانت تغنيها.. وكانت تشجعني على الغناء معها، قائلة لي: إن لدي قدرة على تأدية النغمات كما أتلقاها منها وفي ذات يوم عدت من مدرستي.. فوجدتها في البيت وهي

تضرب على عودها.. فرجوتها أن تعلمني العود ولم يمض قليل حتى استطاعت يدي أن تخرج من الأوتار نغماً متسقاً لمطلع البِشرف، ودخلت علينا والدتي وهي تحسب العود في يد العوادة، فلما أبصرتني.. أرغمتني على القسم ألا ألمس العود بيدي طول حياتي وأقسمت وبررت بالقسم».

لكن هذا القسم لم يمنع الحكيم من التعرف على الموسيقى بشكل أعمق عندما قدم إلى القاهرة واستنشق نسمات الحرية وتخفف من قبضة الأسرة المحكمة، فصاحَبَ الموسيقيين والملحنين الكبار من أمثال سيد درويش وكامل الخلعي وداود حسني وتمتَّعَ بفنهم، وكانت له ملحوظات دقيقة حول بعض الألحان ورؤى موسيقية متطورة ازدادت غنى بعد سفره إلى فرنسا وحرصه على ارتياد قاعات الموسيقى ودور الأوبرا للانتشاء بسيمفونيات موتسارت وبيتهوفن الذي قال عنه في سيرته الروائية (عصفور من الشرق) بعد أن استمع إلى سيمفونيته الخامسة: «نعم إن هو إلا وحي السماء يتكلم، بمختلف المشاعر العظيمة التي رفعت الإنسانية إلى هذه المرتبة! لقد بدأ محسن يدرك ويحس حقيقة تلك الكلمة التي قرأها لنيتشه: «كل عواطف البشرية السامية في السيمفونية الخامسة»!

وإذا كان الحكيم قد ناوش «أفق الموسيقى» بتأثير من انحيازاته الأولى وانتشائه المبكر بغناء الأسطى حميدة وعزفها وانتهاءً بتذوقه أرقى أنواع الموسيقى السيمفونية وأعقدها، فإنه أيضاً قد ناوش «أفق الشعر» عبر تأليفه الأناشيد الوطنية في ثورة 1919 مسترشداً بأنغام تلك الموسيقى الجنائزية التي كانت تعزفها فرقة حسب الله أمام نعوش ضحايا المظاهرات، وكانت تحريفاً لبعض مارشات شوبان وفاجنر وقد نظم الحكيم أيضاً بضع قصائد من الشعر في الحركة الوطنية.

وبرغم ضياع هذه القصائد فإن روح الشعر التي أبدعتها لم تفقد وظلت ملازمة للحكيم حتى سافر إلى فرنسا وكتب مقطوعات شعرية تتحلل من قيود الوزن وتنهض على منطق الصور المتشابكة في تكوينات كتلك التي تتجلى

للمصور التشكيلي وتتواشج مع الفلسفة الجمالية التي ميزت الفن الحديث في عشرينيات القرن الماضي، وقد نشر الحكيم هذه المقطوعات في كتابه «رحلة الربيع والخريف»، ونذكر منها على سبيل التمثيل لذلك النمط الشعري مقطوعة بعنوان الحب:

زهر البنفسج انتثر
وفوق جدار الأبد تدلى وانتشر
لون وأريج وربيع
صُبّ على الكون صباً من آنيتها
أنهارٌ بنفسجية تتصاعد من نافذتها
تفيض على بطاح الأرض وديان القمر
كل شيء في ربيعٍ غرق
وعندما أغلقتْ نافذتها
كان قلبي قد احترق

الفن للحياة:

إذن فقد كان الحكيم حالة فنية مكتملة تنقلت برشاقة بالغة بين عوالم الفن المختلفة وحلقت في فضاءاتها الأثيرية مما جعل صورته في الوجدان العام وفي أذهان كثير من المثقفين قرينة الانعزال وانقطاع الصلة عن حركة الحياة والأحياء وفي هذا الإطار شاعت مقولات أديب البرج العاجي، وراهب الفكر، وهي في ما يبدو لي تصورات وقعت في شرك القراءة المتعجلة، والنظرات الجزئية والملاحظات الخاطفة، لأن من يتأمل المسيرة الحياتية لتوفيق الحكيم وأعماله الإبداعية وكتاباته الفكرية في إطارها الكلي الأشمل يجد أنه كان نموذجاً بالغ الحيوية في الانفتاح على الحياة ليس في سطحها الاجتماعي العريض فقط، بل في عمقها التاريخي والحضاري المتراكم أيضاً.

فمنذ تفتحت مواهبه الإبداعية وهو يسخِّرها لغايات مجتمعية نبيلة بدايةً

من مشاركته في ثورة 1919 بتأليف الأناشيد التي كُتب لها حظ لا بأس به من الذيوع والانتشار بين القاهرة والإسكندرية، ومروراً بتأليفه مسرحية «الضيف الثقيل» في أواخر عام 1919، وهي مسرحية فكاهية رمزية، ذات بُعد إسقاطي يتهكم فيه الحكيم على المستعمر الإنجليزي وبطشه واستغلاله لخيرات البلاد.. وقد صنفها الدكتور مندور تحت مسمى أدب الكفاح، ثم كتابته لرواية «عودة الروح» التي تعد في تقديري المعادل السردي للروح الوطنية التي ألفت بين المصريين في أثناء ثورة 1919.

ومن يتأمل ملابسات تأليف الرواية سيجد أن الحكيم قد انحاز لقيمة تسخير الفن للارتقاء بالمجتمع على حساب الكتابة المجردة عن الفن، لأنه كان قد بدأ في تأليف كتاب ضخم عن الفن وانتهى من خمسين صفحة ما لبث أن مزقها وبدأ في كتابة عودة الروح مؤمناً «بأن تأليف رواية مصرية هو عمل لا يقوم به إلا صاحبه وابن بلده، لابد أن ينبت في أرضه بأيدي أهله، كل جيل مسؤول عن جيله وعن تمهيد الأرض لمن سيأتي بعده».

وبالفعل كانت عودة الروح أول رواية مصرية متماسكة البناء، محكمة السرد، موفقة في تصوير الشخوص، بارعة في توظيف الحوار وتوزيع لغته وفق المستويات اللسانية المتعددة للشخوص، وكانت هي الرحم الروائي الذي تخلقت منه التجارب الروائية الأولى لنجيب محفوظ ومجايليه.

وإذا كان الحكيم في بعض أعماله الإبداعية يعبر عن حيرته بين الفن والحياة كمسرحية «بجماليون» مثلاً فذلك لأن أصالته الذاتية لم تكن لترضى بأن تنظر لمشكلات الوجود الكبرى نظرة اللامبالاة أو الاستهانة، ومن ثم فقد كان يتناول الفن بحسبانه بناءً مؤثراً من أبنية المجتمع الفوقية التي لا يمكن عزلها عن سياق الحياة.

وفي الإطار ذاته لا يمكن تجاهل مسرحياته المتعددة ذات الفصل الواحد التي كان ينشرها في جريدة أخبار اليوم ليعالج عبر مضمونها الاجتماعي جوانب من مشكلات الحياة الراهنة، وقد جمعت هذه المسرحيات وغيرها في

مجلدين كبيرين بعنوان «المسرح المنوّع»، «ومسرح المجتمع»، بالإضافة إلى مسرحيات نُشرت مستقلة وتنتمي إلى ما أطلق عليه الدكتور مندور مسرح الحياة مثل «الأيدي الناعمة» و«الصفقة»، وهي أعمال إبداعية تؤكد قدرة الحكيم على التفاعل مع التحولات السياسية والثقافية وجدله مع البنية المجتمعية.

ولم تقتصر مشاركات الحكيم في الحياة الاجتماعية والسياسية على الجانب الإبداعي فقط، بل تعدتها إلى عدد من المقالات اللاذعة، لعل أهمها مقالته الشهيرة التي نشرها في 20 أكتوبر 1938 بمجلة آخر ساعة بعنوان «أنا عدو المرأة والنظام البرلماني»، لأن طبيعة الاثنين في الغالب واحدة «الثرثرة».

وكتب فيها أن النظام البرلماني في مصر هو الأداة الصالحة لتخريج الحكام غير الصالحين، وقد أحدثت هذه المقالة صدى واسعاً لدى المسؤولين وانتهت بخصم خمسة عشر يوماً من راتبه.

وفي فترة الحكم الناصري لم يمنعه تقدير الرئيس جمال عبد الناصر البالغ له واعتباره الأب الروحي لثورة يوليو، حيث تنبأ بها في كتابه «شجرة الحكم» المنشورة عام 1945 وإعطاؤه أرفع الأوسمة، عن أن يتناول في مسرحيته «السلطان الحائر» المساوئ التي قد يقع فيها الحاكم حين يجور السيف في يده والحكم المطلق على القانون والديموقراطية، وكذلك أشار في «بنك القلق» إلى خطورة القمع والهيمنة الأحادية، وحذر كثيراً من سلبيات ذلك العهد، التي ناقشها مناقشة تفصيلية بعد ذلك في كتابه «عودة الوعي» الذي نشره عام 1972 معترفاً بتخاذله ومستنكراً صمته العاجز في المرحلة الناصرية.

وهي في تصوري الشخصي محاولة للتطهر على طريقة الأبطال التراجيديين في المسرح الكلاسيكي حاول الحكيم أن يتمها بكتابة «بيان الكُتّاب والأدباء» بعد أن ضاقوا بحالة اللاحرب واللاسلم في بداية حكم السادات، مستعيداً ذاكرة الشجاعة القديمة حين هاجم الأحزاب وانتقد النظام البرلماني في ثلاثينيات

وأربعينيات القرن العشرين، وكان من عواقب هذا البيان كما يقول الحكيم أنه تسبب في طرد وتشريد أكثر المشتركين في التوقيع عليه، وكان أن شتمه السادات في اجتماع علني عام.

وبعد، فهل تنطبق مقولة أديب البرج العاجي على توفيق الحكيم ؟! لندع الحكيم يناقش هذه المقولة في مقاله «البرج العاجي الأخلاقي»:

«البرج العاجي عند أكثر الناس معناه اعتصام الكاتب بالسحب اعتصاماً يقصيه عن أحداث الدنيا وحقائق الوجود، وهذا غير صحيح، على الأقل بالنسبة إليّ، فما من حدث استوجب تحرك القلم إلا حرّك قلمي، وما من أمر هزَّ البشرية إلا هزَّ نفسي، بل ما من قضية من قضايا الحياة الكبرى التي تمس الإنسان وتطوره وتقدمه إلا شغلتني ودفعتني إلى الجهر بالرأي حتى في النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية دون التفات إلى عواقب الرأي الحر والنقد المر».

وفي هذا الإطار الذي بدا فيه الحكيم منفتحاً على الحياة انفتاح المستوعب المتأمل الناقد – كما تجلى من قبل – مستغرقاً في الفن استغراق العاشق المتبتل العابد يحق لنا أن نقدم روايته المتميزة «يوميات نائب في الأرياف» بحسبانها نموذجاً إبداعياً دالاً ينفتح على الحياة الاجتماعية والسياسية في ريف مصر في الربع الثاني من القرن العشرين، ويراعي مقتضيات الفن النوعية ويوظفها برهافة بالغة في الآن ذاته، وهي رواية يجمع أغلب النقاد على تفردها بالرغم من أنها لم تأخذ حقها من الدرس النقدي والتحليل المفصّل كعودة الروح وعصفور من الشرق فقد قال عنها الدكتور مندور إنها تعتبر من خير ما كتب توفيق الحكيم، وقال عنها الناقد أحمد عباس صالح «كانت نقداً عنيفاً لأسلوب الحياة في الريف ولنظام الحكم بشكل عام وكتب عنها الناقد الأميركي روجر آلان: «إنها أحسن رواية كتبها الحكيم، بل إنها رواية متطورة ممتازة في أي سياق تقييم الزمني منه أو النقدي.. وأعتبرها إضافة هامة في تطور الرواية العربية بسبب محورية الرواية حول الحياة الريفية والنظرة النقدية الدقيقة المضحكة لمشاكل الشخصيات المقيمة فيها.»».

ورأى أن النائب راوي الحكيم جاء إلى هذه المنطقة التي لا تتغير ليطبق على الفلاحين الأميين الذين لا يدركون قوانين المدينة المتفرنجة في استخدام مفاهيم غريبة مستعارة عن قوانين أجنبية غير معروفة وعليه تفسيرها لهم.. وفي هذا السياق القصصي تعتبر صورة الصراع الداخلي الذي يعتري النائب، وهو يواجه في نفس الوقت موقفين متناقضين تماماً من أكبر سمات عبقرية الحكيم الفنية في هذه الرواية».

وفي تصوري الشخصي أن سر جاذبية «يوميات نائب في الأرياف» يكمن في تمردها على نسق التصنيف النقدي الساكن إذ تُراوح بين ثلاثة من الأجناس السردية، وهي نسق اليوميات المتكئ على بنية التأريخ القصير المنضبط، التي تتواشج مع زمن وقوع الأحداث في اثني عشر يوماً من 11 أكتوبر وحتى 22 أكتوبر، ونسق السيرة الذاتية الذي ينهض على وحدة الهوية بين الراوي الذي يسرد بضمير المتكلم وشخصية وكيل النيابة التي هي في حقيقة الأمر شخصية المؤلف الفعلي توفيق الحكيم، مما يؤكد حيوية التجربة ودفء الواقع الروائي المردوف بفاعلية التخييل، والنسق الثالث هو نسق الرواية الواقعية التي تُعنى برسم ملامح الشخصيات وتجيد نسج التفاصيل المترابطة وفضاءات الصراع في عالم الريف.

وقد استطاع الحكيم تفعيل بنية التشويق عبر البدء بسرد الجريمة مع أول صفحات الرواية «مقتل قمر الدولة علوان» ويأتي التشويق في البحث عن فاعل الجريمة متواشجاً مع نفس اجتماعي ساخر يغوص في نفسيات الشخوص ويكاد يحفظ ردود أفعالهم عن ظهر قلب، ومتآزراً في الآن ذاته مع بنية التشبيه البلاغية التي أكسبت السرد مذاقاً فنياً خاصاً على مستويي السخرية والانفعالات الوجدانية، إزاء الفتاة الجميلة ريم رمز الجمال والبراءة في عالم القبح والجريمة، وهي تقنيات إبداعية أدعو القرّاء إلى تأملها وهم يقرأون الرواية مستشرفين فضاءات مغايرة للفضاءات التي رأيناها مع الحكيم في القاهرة عبر «عودة الروح»، وفي باريس عبر «عصفور من الشرق».

لماذا أدون حياتي في يوميات؟ ألأنها حياة هنيئة؟ كلا! إن صاحب الحياة الهنيئة لا يدونها، إنما يحياها. إني أعيش مع الجريمة في أصفاد واحدة. إنها رفيقي وزوجي أطالع وجهها في كل يوم، ولا أستطيع أن أحادثها على انفراد. هنا في هذه اليوميات أملك الكلام عنها، وعن نفسي، وعن الكائنات جميعاً. أيتها الصفحات التي لن تنشر! ما أنت إلا نافذة مفتوحة أطلق منها حريتي في ساعات الضيق!..

11 أكتوبر سنة...

آويت إلى فراشي البارحة مبكراً، فقد شعرت بالتهاب الحلق، وهو مرض يزورني الآن من حين إلى حين. فعصبت على رقبتي خرقة من الصوف، وعَمَّرت بقطع من الجبن العتيق مصايد الفيران الثلاث، ونصبتها حول سريري كما تنصب الألغام الواقية حول سفينة من سفن الصليب الأحمر، وأطفأت مصباح النفط، وأغمضت عيني وأنا أسأل الله أن ينيم الغرائز البشرية في هذا «المركز» بضع ساعات، فلا تحدث جناية تستوجب قيامي ليلاً وأنا على هذه الحال. فلم أكد أضع رأسي على المخدة حتى كنت حجراً ملقى، إلى أن حركني صوت الخفير يضرب الباب ضرباً شديداً، وينادي خادمي صائحاً: «اصح يا دسوقي!»، فعلمت أن جناية وقعت، وأن الغرائز لم تنم لأني أردت أنا أن أنام. فنهضت لوقتي وأشعلت المصباح، ودخل عليَّ خادمي يفرك عينيه بيد، ويقدم إليَّ بالأخرى (إشارة تليفونية) فأدنيت الورقة من الضوء وقرأت: «الليلة، الساعة 8 مساء، بينما كان المدعو قمر الدولة علوان ماشياً على

الجسر بالقرب من «داير» الناحية أُطلق عليه عيار ناري من مزرعة قصب والفاعل مجهول، وبسؤال المصاب لم يعط منطقاً وحالته سيئة، لزم الإخطار». «العمدة».

فقلت في نفسي: لا بأس، تلك حادثة بسيطة تستغرق مني على كثر ساعتين؛ فالضارب مجهول، والمضروب لا يتكلم ولا يثرثر، الشهود ولا ريب: الخفير النظامي الذي سمع صوت العيار فذهب إليه خائفاً متباطئاً، فلم يجد بالطبع أحداً بانتظاره غير الجثة الطريحة، والعمدة الذي سيزعم لي حالفاً بالطلاق أن الجاني ليس من أهل الناحية، ثم أهل المجني عليه الذين سيكتمون عني كل شيء ليثأروا لأنفسهم بأيديهم.

فسألت خادمي عن الساعة وكتبت في ذيل الورقة: «وردت الساعة العاشرة، وقائمون لضبط الواقعة» وقمت من فوري إلى ثيابي فارتديتها على عجل، كما يصنع رجال المطافئ، وأرسلت في طلب كاتب التحقيق وسيارة النيابة، وأوفدت من يوقظ مساعدي الجديد وهو شاب رقيق الحاشية، حديث عهد بالعمل، كان قد أوصاني أن أستصحبه في الوقائع ليكتسب الخبرة والمران. ولم ألبث أن سمعت ببابي بوق سيارة المركز «البوكس فورد» بها المأمور، ومعاون الإدارة، وبعض الجنود. فنزلت إليهم فوجدت كل شيء قد أُعدّ ولا ينقصنا إلا كاتب للتحقيق، فلم أعجب. لأني ما أبطأت يوماً في القيام إلى واقعة إلا كان السبب كاتب التحقيق، في أي بلد كان، وفي أي مركز. والتفتّ إلى الخفير وقلت.. أنت متأكد أنك ناديت سعيد أفندي؟ فسمعت في الظلام صوت الحذاء الضخم يضرب الأرض، ولمحت يداً ترتفع بالتحية فوق (اللبدة) الطويلة ذات الرقعة النحاسية، وفماً يتحرك تحت شارب أسود كبير كأنه ذَنَب القط: «لبس القميص قدامي ياسعادة البك!». ورأينا أن ننطلق بسياراتنا لنمرّ بمنزل الكاتب فنستصحبه.. فركبت أنا ومساعدي والمأمور سيارة النيابة حتى بلغنا منزلاً قديماً في طرف البلدة. فصاح الخفير وكان قد تعلق بسلّم

السيارة ليدلنا على الطريق.. «انزل يا سعيد أفندي». فأطل الكاتب من نافذة قصية وهو في جلباب النوم: «حادثة»؟ فصاح الخفير. «حادثة ضرب نار»، وما أشعر عندئذ إلا بيد المأمور قد خرجت من نافذة السيارة ونزلت على قفا الخفير: «يا خفير يا ابن.. لبس القميص قدامك يا ابن الـ ...». «وحياة رأس سعادة البك كان لابسه..». ولم أر ضرورة للتحقيق في هذه المسألة، فالأمر لا يخرج عن اثنتين: إما أن الخفير لا يعرف القميص من اللباس وهو شيء غير مستغرب، وإما أن سعيد أفندي قد عاد فخلع قميصه ونام من جديد، وهو شيء أيضاً غير مُستغرَب. وما دمت أنا وحدي المسؤول رسمياً عن التأخير، فلا نفع إذن من صياحي مع سعيد أفندي غير تصديع رأسي، وأنا أحوج الناس إلى الراحة الليلة، وإلى توفير الجهد والكلام للقضية الحقيقية التي من أجلها نتجشم. ولم يلبث الفتور أن دَبَّ في أعضائي، فأسندت رأسي إلى ركن السيارة وقلت لمن معي: «محل الحادث على بعد ثلاثين كيلومتراً، فلا بأس من أن أنعس مسافة الطريق» وأغمضت عيني، وتحركت سيارتنا وخلفها «البوكس فورد» وبها الكاتب والمعاون والباشجاويش والعساكر – وما كدنا نخرج إلى الطريق الزراعية حتى سمعنا صوت غناء في جوف الليل، فأخرج المأمور رأسه من النافذة في الحال وصاح: ياحضرة المعاون! نسينا الشيخ عصفور. ووقفت القافلة، وإذا الصوت يخرج واضحاً من دغل «بوص» على حافة غيط:

... ورمش عين الحبيبة يفرش على فدان...

فأسرع المعاون منادياً: «اطلع يا شيخ عصفور. حادثة»! فظهر ذلك الرجل العجيب الذي يهيم على وجهه بالليل والنهار، لا يعرف النوم، يغني عين الأغنية، ويلفظ كلمات، ويلقي بتنبؤات. يصغي إليها الناس، ذلك الرجل الذي لا يفرحه شيء مثل خروجه إلى الحوادث مع النيابة والبوليس، فهو يسمع عن بعد بوق «البوكس فورد»، ويتبعه أينما ذهب كالكلب الذي يتبع سيده إلى الصيد.. لماذا كل هذا؟ طالما سألت نفسي: ألا يكون لهذا الرجل سر؟. ودنا

الرجل من «البوكس» قائلاً في شبه احتجاج:

– كنتم طالعين من غيري...؟

فأجابه الباشجاويش باسماً:

– أبداً! لو كنا نعرف عنوانك لبلغناك الإشارة!

فقال الرجل:

– طيب. هات سيجارة!

فغمزه الباشجاويش سريعاً وقال له في صوت خافض:

– اسكت، يسمعك البك المأمور.

فقال الشيخ عصفور:

– هات سيجارة ياحضرة الباشجاويش، لأني أنا الليلة «باشخرمان»!

وصعد الرجل إلى «البوكس فورد» كأنه يصعد إلى «رولز رويس» بعد أن انتزع من الدغل عوداً أخضر حمله في يده كالصولجان. وانطلقت السيارتان بين المزارع وقد نامت الطبيعة وسكنت الأصوات إلا من نقيق الضفادع، وهفيف الحشرات، وتغريد الشيخ عصفور المتصاعد من جوف «البوكس». وقد أغفيت أنا أيضاً إغفاءتي التي اعتدتها كلما ركبت إلى واقعة، إغفاءة متقطعة لا تمنعني أحياناً من سماع ما يدور حولي من الكلام. وكان مساعدي إلى يساري متيقظاً يبدو عليه العجب ويريد أن يسأل عن كل شيء فيمنعه الخوف من إزعاجي. فالتفت إلى المأمور بجواره، وسرعان ما اشتبكا في حديث طويل لم أع منه شيئاً، فهو الذي أنامني النوم العميق طول الطريق، وانتبهت على وقوف السيارة بعد زمن ليس بالقصير، فتحت عيني فإذا نحن أمام ترعة.. وإذا (المعدية) في انتظارنا لتنقلنا إلى الضفة الأخرى.

فنزلنا جميعاً وامتلأ بنا القارب كأننا غرقى في زورق النجاة أو «أزيار» من الفخار في مركب بالصعيد. وسارت بنا «المعدية» حتى بلغت الشاطئ الآخر ونحن لا نسمع في سكوت الليل العميق غير سلاسلها تضرب الماء، ولا

نرى من حلك الظلام شيئاً. ولم تكد تطأ أقدامنا البر حتى سمعنا صهيل خيل، وإذا أمامنا «الركايب من خيول نقطة البوليس» وحمير العمدة، مهيأة لحملنا إلى مكان الحادث. وآه من الخيول! لقد تقدم إليّ أحد الجنود بجواد مُطهَّم إجلالاً لقدري. ورأيت هذا الحصان يتبختر ويفحص الأرض بحوافره، ولا يصبر على الهدوء حتى أعتلي ظهره، فعلمت أني لا محالة واقع على الأرض. ولطالما كدت أقع من فوق تلك الظهور اللاعبة التي لا يحكمها غير فارس بارع لا راكب نائم. ولطالما فضلت عليها الحمير الهادئة غير أني نظرت خلفي فإذا أكابر القافلة قد امتطوا الخيول ولم تبق الحمير إلا للأوباش، فخجلت أن أنزل عن جوادي وأن أحاذي في المرتبة الشيخ عصفور، وقد اعتلى حماراً أشهب وخزه بصولجانه الأخضر فانطلق به في ذيل الجياد. أسلمت أمري لله، وسرت في المقدمة قائداً مترنحاً من الخوف والتعب إلى أن ظفر النوم بجفوني فلم أشعر بشيء. وفجأة وجدت جسمي قد طار من فوق الجواد ووقع على عنقه! فقد قفز الحصان في قناة ماء قفزة شديدة خلعني من فوق ظهره خلعاً. فقلت. «ما حسبناه لقيناه»! وصحت بالخفير الملحق بركابي. «الحصان يا خفير! الحصان»! فوقف الركب واختل النظام، وأوسع رجاله شتماً وصفعاً، وأمراً ونهياً وأعادوني إلى ظهر جوادي وأنا أقول لأداري خجلي: يظهر الحصان نام وهو ماش، أو خاف من ثعلب فارّ فجمح. على كل حال أمسك اللجام يا خفير. فأمسك خفيران اللجام ومشياً بي رويداً رويداً مشية هادئة متزنة أعادت إلى نفسي هجوعها فلم أصحُ إلا في مكان الواقعة.. وأبصرت ضوء المصابيح والمشاعل في أيدي الأهالي المجتمعين حول المصاب، فطار التعب من رأسي كما تطير البوم من وكرها على الضوء المقترب وأسرعت في النزول من فوق صهوة الجواد وشققت طريقاً بين الناس الذين هتفوا في صوت خافت: «النيابة حضرت». ودنوت من ذلك الجسم الممدد على الأرض، وحدقت في ذلك الوجه المعفر بالتراب والدم، فعلمت أنه حقيقة لن يتكلم، وقد

وجدت ملاحظ «النقطة» غارقاً لأذنيه في تحرير «محضره» الذي سأضرب به عرض الحائط، فالنيابة متى حضرت بحثت كل شيء من جديد.. وباشرنا التحقيق مفتتحين بمحضر المعاينة، فأمسك الكاتب ورقة وقلماً ودنا مني فأمليت عليه الديباجة المعروفة: «نحن فلان وكيل النيابة ومعنا فلان كاتب التحقيق. الليلة الساعة كذا وردت إلينا الإشارة التليفونية رقم كذا ونصها كذا. وعليه قمنا بسيارة إلى ناحية كذا، فبلغناها افتتاح هذا المحضر إلخ إلخ..» ذلك أني أحب دائماً أن أُعنى بتحرير «محضري» أن أجعله مرتباً ترتيباً منطقياً والمحضر هو كل شيء في نظر أولي الأمر. وهو وحده الشهادة الناطقة للنائب بالدقة والبراعة. أما ضبط الجاني فأمر لا يسأل عنه أحد. ويلي «الديباجة» وصف الإصابة والملابس والموضع الذي وُجِد فيه المجني عليه. فما قصرنا. وأمليت على الكاتب أوصاف ذلك الجرح الناري الذي رأينا ثقبه المتسع في كتف المصاب. وقد حدث فيما أرى من «حشار» بندقية أطلقت على بعد غير كبير فهتكت اللحم وأنزفت الدم. وقد وصفنا الوجه خير وصف، وهو لرجل قارب الأربعين وسيم قسيم، تلك الوسامة الريفية بما فيها من رجولة وصحة وقوة. ولم يفتنا ذكر وشم العصفور المرسوم في أعلى صدغه، ولا لون شاربه الضارب إلى الصفرة، والثياب أحصيناها من «الدفية» والجلباب الغزلي وكيس النقود الذي لم يُمسّ، إلى السروال «البفتة» الأبيض ذي التكة الحمراء. نعم، لم ننس تكة اللباس ونوع نسيجها، فإن ذكر التفاصيل دليل على الدقة والعناية. هكذا تعلمنا التحقيق كابراً عن كابر! وأذكر أني تركت ذات مرة جريحاً يعالج سكرات الموت، وجعلت أصف سرواله وتكته و«بلغته» و«لبدته»، فلما فرغت انحنيت على المصاب أسأله عن المعتدي عليه، فإذا بالمصاب قد توفِّي. ولم ننس وصف المكان، وهو طريق ضيق بين مزارع قصب على الجانبين. ولا عجيب، فإن لكل نوع من الزرع محصوله من الجرائم: فمع ارتفاع الذرة والقصب يبدأ الموسم، «القتل بالعيار»، ومع اصفرار القمح والشعير يظهر

الحريق «بالحار والقوالح»، ومع اخضرار القطن يكثر «التقليع والإتلاف» وانتهينا من الجريح المحتضر، ولم يعد يهمنا أمره بعد أن ملأنا «محضرنا» بأوصافه، فتركناه في دمه تحت رعاية ضابط «النقطة» حتى يأتي لحمله إلى المستشفى رجال الإسعاف. وذهبنا إلى «دوار» العمدة حيث كانت في انتظارنا القهوة. وآه من قهوة «العمدة»! إني أسميها دائماً «الكلوروفورم»، فما من مرة إلا أحدثت عندي عكس المقصود من شربها! ولست أدري العلة، غير أني سمعت ذات ليلة عمدة من هؤلاء العمد يصيح في تابعه أمامنا: «هات يا ولد قهوة بن»، ولم أفهم وقتذاك معنى لإضافة لفظ «البن» إلى «القهوة»؟ أتُرى النص على البن «صراحة» جاء من قبيل التأكيد، أم على سبيل التشريف والتكريم؟ لست أعلم. إنما الذي علمته يومئذ واستوثقت منه أن هذا «اللفظ» الأخير وإن دخل في تركيب الجملة. لم يدخل في تركيب القهوة. وجلسنا في «المنظرة» على فرش من قطيفة ذهب وبرها ولونها، ووضع الكاتب أوراقه على خوان أعرج، تعلوه رخامة مكسورة، ونشر المحضر «تحت» مصباح كبير له دوي وطنين قد جمع حوله هوام الليل، وصحت أطلب الشهود. فصاح المأمور لصياحي: «اجمع الشهود يا حضرة المعاون». وارتمى على مقعد رحب في ركن الحجرة ارتماءة أدركت معها أن ليس بعدها غير نعاس وغطيط، وجلس مساعدي على مقربة مني يرمق ما يجري بعيون فاترة، تنم على كسل بدأ يداعبها مداعبة النسيم للأوراق. وجاءوني بالخفير النظامي الذي سمع صوت العيار وهُرِع إلى مكان الجريمة أول من هُرِع. فلم يخيب ظني في شيء إلا في قوله إنه سمع عيارين، مع أن الوارد في «الإشارة» عيار واحد، والإصابة من عيار واحد، وأقوال الحاضرين متفقة على أنه لم يدوِّ في القرية سوى عيار واحد. ما حظ هذا الرجل من الكذب؟ لست أدري، وتركنا جوهر القضية وانصرفنا إلى مسألة العيار والعيارين. فسألنا الجميع من جديد فأجابوا مجمعين: عيار واحد يا سعادة البك.

– سمعت يا خفير...

– عيارين يا سعادة البك.

– متأكد؟

– عيارين يا سعادة البك.

هنا ثقل التحقيق وسماجة المهنة. أفهم أن يكذب المتهم، فهو حقه الطبيعي، وما أطمع قط أن يصدقني متهم. ولكن الشاهد، ماذا يحمله على أن يلقي على وجه الحقيقة كلفاً من التشكيك والتناقض، لوجه الله تعالى.؟

ومضى التحقيق في شعاب مظلمة لا أمل معها في الوصول إلى شيء. فما من أحد يعرف الجاني، وما من أحد يتهم أحداً، وما من أهل للمضروب في هذا البلد غير أم عجوز مريضة كسيحة ضعيفة البصر لا تستطيع الكلام، وغير زوجة ماتت منذ عامين وتركت طفلاً صغيراً لا يصلح للوقوف أمامنا في موقف السؤال، وما من أحد يعرف أن بين المصاب وبين إنسان على وجه البسيطة عداوة أدت إلى ارتكاب الجريمة. أَهَبَط إذن شيطان من الجحيم فأطلق على الرجل العيار؟ لا أحد يدري. لقد وجدت ما حسبت. إني منذ قرأت «الإشارة» أدركت أن القضية ميتة. وهل أستطيع أنا «بتحقيقي» أن أبعث الحياة فيما لا حياة فيه؟ إن لم يقبل عليّ الشهود بالصدق، وتعاونني الأهالي بالرغبة والإخلاص فأي «محضر» في الوجود يوصلني إلى التشرف مرة بمعرفة جانٍ من الجناة؟ وجاءت نوبة العمدة في الشهادة، وحلف اليمين وبدأنا نلقي تلك الأسئلة التي لا تقدم ولا تؤخر.. وإذا بغطيط يعلو من ركن الحجرة ويغطي على التحقيق. فالتفت فإذا المأمور قد «كوع» على «الكنبة»، ورأى العمدة هذه الالتفاتة مني، فاستأذنني واتجه إلى المأمور وأيقظه في لطف:

– تفضل يا بك على السرير في القاعة.

وقاده في أدب ولطف إلى حجرة أخرى داخلية. ثم عاد أمامي يدلي بما عنده من أقوال رسمية «تجارية» قد دمغت بطابع الوظيفة ألفاظها وعبارتها

تكاد لا تتغير بين عمدة وآخر، وهي على كل حال لا تنفع ولا تضر، وتلقي على نار الحادث برداً وسلاماً، ولم يكد حضرة العمدة يوقِّع بإمضائه الذي يضاهي نبش الدجاج تحت أقواله، ويتنحى عن موقف الشهادة، حتى فتح باب الحجرة الداخلية وظهر المأمور وهو يحك جسمه بأظافره ويلتقط بإصبعه أشياء على ملابسه ينفضها عنه، وهو يرغي ويزبد:

– سرير! أعوذ بالله! أنت عمدة أنت..؟

فعلمت ما حدث بالتمام.. وضحكت في نفسي.. وتظاهرت بالانهماك في عملي فلم أرفع وجهي عن الأوراق. وجلس المأمور في مقعده جلسة من قد ذهب النوم من عينيه ذهاباً لا رجعة له تلك الليلة. ولم يلبث أن صاح في العمدة:

– هات قهوة والسلام. اعملها موزونة وحياة عينيك.

ثم وجه إليّ الكلام كأنه يريد أن يسلى سهره:

– القضية على الحبل؟

وهو يرمي بهذا الاصطلاح إلى استطلاع حال القضية ومدى نجاحها الذي يؤهلها للذهاب برأس المتهم إلى المشنقة فأجبته في صوت غير مرتفع دون أن أنظر إليه، وكأني أخاطب نفسي.

– القضية على السرير!

وفجأة نهض المأمور عن مكانه كأنما قد تذكر مفتاح السر وصاح.

– ياشيخ عصفور!...

فبرز رأس الرجل العجيب من خلف كرسي من القش بركن مظلم من أركان القاعة ونهض بصولجانه الأخضر كأنه يقول: «لبيك».

– رأيك يا شيخ عصفور؟

فلم أطق صبراً. ما كان ينقصنا إلا أن نستشير المعتوهين في قضايا الجنايات! فنظرت إلى المأمور نظرة ذات معنى، فاقترب مني وقال:

– الشيخ عصفور كله بركة. مرّة دلنا على بندقية متهم مدفونة في قاع الترعة!

– ياحضرة المأمور.. بدلاً من سؤال الشيخ عصفور والشيخ طرطور كَلِّف خاطرك وانتقل مع المعاون والعساكر، وفتشوا دور المشتبه فيهم من الأهالي.

فصاح المأمور:

– يا حضرة المعاون.

فأقبل المعاون من خارج الحجرة وقد سمع قولي، وقَدَّم إلى رئيسه «محضر تفتيش من قسيمة واحدة»:

– أجرينا التفتيش يا فندم!

فلم ينظر فيه المأمور وناولني إياه، فجريت ببصري على الكلام الطويل العريض وانتهيت إلى العبارة المألوفة: «... ولم نعثر على شيء من الأسلحة أو الممنوعات..»».

فأشرت في ذيل الورقة: «يُرْفق بالمحضر»، ووضعت رأسي في كفي أفكر فيما ينبغي عمله في هذه القضية، وفيمن ينبغي سؤالهم حتى نكمل محضرنا عشرين صفحة على الأقل. ذلك أني ما زلت أذكر كلمة رئيس النيابة يوماً لي وقد تناول محضراً في عشر صفحات:

«مخالفة؟ جنحة»؟ فلما أخبرته أنها قضية قتل صاح دهشاً: قضية قتل وتحقيق في عشر صفحات فقط. قتل! قتل رجل! قتل نفس آدمية في عشر صفحات؟! «فلما قلت له: «وإذا ضبطنا الجاني بهذه الصفحات القليلة» لم يعبأ بقولي ومضى يزن المحضر في ميزان كفه الدقيق: «من يصدق أن هذا محضر قتل رجل»؟! فقلت له على الفور: «إن شاء **الله** نراعي الوزن»!

مر بخاطري كل هذا وأنا مطرق صامت.. وإذا صوت الشيخ المعتوه يرتفع في القاعة منشداً:

فتش عن النسوان،

تعرف سبب الأحزان،

ورمش عين الحبيبة،

يفرش على فدان...

لم أغضب على الشيخ الذي امتهن حرمة التحقيق بهذا الغناء، ولم أطرده خارج القاعة، ولكني تفكرت قليلاً في مغزى كلامه لو أن له مغزى ينفعني.. كل ما يجوز الالتفات إليه كلمة «النسوان»، والتفتيش لا عن المشبوهين بل عن النسوان. أي نسوان؟ إني لم أر قضية خلت من النسوان مثل قضيتنا هذه. فالمضروب يعيش وحيداً بعد أن ماتت زوجته. ولا أحد معه غير أم عجوز كسحاء لا ينبغي أن تحسب في النساء. لا ريب أن هذا العصفور لا يعي ما يقول. هذا الشيخ الأخضر من فصيلة الببغاء لاشك، يردد الألفاظ والأغاني دون أن يعني بها شيئاً من الأشياء.. لكن مهلاً! إن للمجني عليه طفلاً، فهل تلك الأم المقعدة المريضة هي التي تعنى بشأنه؟ «تعال يا عمدة..». وألقيت على العمدة هذا السؤال. فأجاب في براءة الطفل وسذاجة الأبله:

– الولد في حضن البنت!

– أي بنت؟

– البنت، أخت المرحومة امرأته.

– بنت كبيرة؟

– «عيّلة».

فنظرت إلى المعاون وأمرته أن يحضر هذه البنت في الحال. ولم يمض قليل حتى بدت غادة في السادسة عشرة من عمرها، لم تر عيني منذ وجودي في الريف أجمل منها وجهاً ولا أرشق قداً، وقفت بعتبة الباب في لباسها الأسود الطويل كأنها دمية من الأبنوس طعمت في موضع الوجه بالعاج. وقال لها العمدة مشجعاً:

– ادخلي يا «عروسة».

فتقدمت في حياء، واضطربت خطواتها، إذ لم تعرف بين يدي مَنْ من الجالسين يجب عليها الوقوف. فوجهها العمدة إليّ فوقفت في وجهي ورفعت إلى رمشين.. ولأول مرة يرتج علي في «التحقيق» فلم أدر كيف أسألها.. ولم يرها الكاتب، فقد كان موقفها خلف ظهره. فلما لحظ صمتي ظن بي تعباً، فغمس في الدواة ورفع رأسه إليها وهو يسألها:

– اسمك يا بنت..؟

فما إن وقع بصره عليها حتى حملق فيها ولم يعد إلى الورق. ونظرت حولي فوجدت مساعدي الناعس قد أفاق ونشط وأخذ يرمق الصبية بعينيه الواسعتين، ونقلت بصري إلى المأمور فإذا به الساعة في غير حاجة إلى قهوة ولا إلى بن، وزحف الشيخ عصفور حتى بلغ موطئ قدمي فأقعى كالكلب ينظر إلى الفلاحة الحسناء فاغراً فاه. حقاً إن للجمال لهيبة.. ورأيت أن أملك سريعاً ناصية نفسي قبل أن ينكشف الأمر، فقلت لصاحبة الجمال وأنا أكبح عيني حتى لا أنظر إليها:

– اسمك؟

– ريم.

لفظته في صوت.. هز نفسي كما تهز الوتر أنامل رقيقة، فما شككت في أن صوتي سيتهدج إن ألقيت عليها سؤالاً آخر فتريثت وبدت لي دقة الموقف وأيقنت ببطء التحقيق إذا قُدِّر لي أن أقف كالدائخ بين السؤال والسؤال فاستجمعت ما بقي عندي من شتات القوة والعزم وهجمت بأسئلة لا أنتظر الجواب عنها إلا جملة، وقلت لها تكلمي في كل هذا.. ولبثت أنظر، فعلمت منها العجب العجاب! إنها حتى الآن لا تعلم ما جرى للمجني عليه! فقد أيقظوها من النوم للساعة، وجاءوا بها أمامي دون أن يذكروا لها شيئاً، ولم أشأ أن أخبرها الآن بما وقع وقد آنست منها أشياء لا يدركها إلا مجرد الإحساس..

سألتها: ألم يخطبها خاطب؟ فكان الجواب: بلى: آخر من تقدم إليها فتى

جميل لم ترفضه، ولكنَّ زوج أختها وهو مقام وَلِيِّها تردد في القبوُل كما تردد دائماً في قبُول الأيدي الكثيرة التي ارتفعت تدعوها كما ترتفع أيدي المؤمنين بالدعاء!.. «أو تحقدين عليه من أجل هذا؟». فكان الجواب كذلك: لا، قالتها في نبرة حارة: حرارة خاصة أدركْتُها كذلك بإحساسي. «وهل كان بينك وبين الفتى الخاطب اتصال»؟ نعم لقد اجتمعنا أمام الدار مرتين في لقاء بريء. وقد علم أنها لا تكرهه زوجاً، ولكنها تكره مخالفة وليّها، وذلك الوالي ما غايته من رد الخاطبين والطلاب؟ أهو غلوّ منه في الحرص على هنائها؟ أهو لا يجد الزوج الكفء؟ إنها لا تعلم حقيقة سره. وإنها لتريد أن تعلم. وإن هذا ما يحيرها أحياناً، وما يبكيها. إنها تريد أن تعلم. تعلم ماذا؟... لا شيء. لا تستطيع التعبير.. إن التعبير هبة لا يملكها كل الناس.

وبعد، فالتعبير يستوجب العلم بحقيقة الشعور الرابض في أعماق النفس.. وهذه الفتاة فيما يخيل إلي، ذات نفس كدغل «البوص والقصب» لا يصل إلى قاعها من الضوء غير قطع كالدنانير تتراقص في ظلام القاع كلما تمايل القصب...

على أي حال قد بدأت قطع من الضوء تتساقط أيضاً بين سطور «المحضر»، وبدأنا نضع أيدينا على عصب نابض من أعصاب القضية، وهممت أن أطلب فنجاناً آخر من القهوة وقد طاب المجلس وحلا التحقيق. وإذا المعاون يسأله ملاحظ النقطة وقد ظهر بالباب:

– أَحَضَرَ الإسعاف ونقل المضروب؟

– من زمان!

فأدركت الصبية كل شيء فانطلقت من فمها صيحة كتمتها في الحال خجلاً منا، غير أني ما شككت في أن لها دوياً وانفجاراً داخل نفسها.

وأردت أن أمضي في عملي فما وجدت أمامي غير فتاة تجيبني بكلام أبتر لا شبع فيه ولا غنى. ورأيت أن أرجئ التحقيق فقلت:

– استريحي يا ريم...

ونظرت إلى المأمور.

– الأحسن نكمل التحقيق الصبح.

فأشار إلى النافذة، فإذا النهار يدخل منها متلصصاً وقد خدعني عنه المصباح المضيء. فاستويت على قدمي إذ ذكرت للفور أن جلسة الجنح اليوم، وقد فاتني أن أدبر الأمر من الليل حتى يخلفني فيها نائب من الزملاء، فلا مفرّ لي إذن من العودة العاجلة حتى أحضر الجلسة في الميعاد.

– يا حضرة المعاون! هات البنت في «البوكس»!

وأقفلنا المحضر على أن نستأنف التحقيق بعد الجلسة في دار النيابة.

وقمنا إلى «الركايب» فامتطيناها عائدين والشيخ عصفور خلفنا يصيح ويلوح بعوده الأخضر في حركات الثائر المهتاج:

– هي بعينها!

والمأمور يجيبه:

– اعقل...!

– هي بعينها، برمشها.. عرفتها، برمشها.

– اعقل يا شيخ عصفور، وافطن لنفسك، تقع من فوق الجحش!

ودَبَّ التعب في أعضائي فانحنيت على ظهر الحصان، ولكن نسيم الصباح الرطب كان يضرب وجهي ضربات خفيفة كأنها لطمات مروحة في يد ماجنة ظريفة، فلم أفقد نشاطي وطفقت أفكر، وإذا غناء العصفور يرتفع بغتة شديداً كأنه شيء قد انخلع مع قلبه:

– ورمش عينها يفرش...

ولم أسمع البقية، بل سمعت شيئاً سقط على الأرض فالتفتنا فألفينا الشيخ عصفور بأطماره على الأرض قد فرش.. فوقفنا.. وأسرع إليه الخفراء فحملوه إلى حماره، فاستوى عليه وهو ينفض عن جسمه التراب صائحاً مستأنفاً:

– ... على فدان...

وسمعت المأمور ومساعدي يضحكان ضحكاً صافياً. ثم سمعت المأمور ينتهر المعتوه قائلاً له: «افطن لنفسك. صاحبتك غرقت في الرياح من سنتين.. ولم يكن في عقلي وقتئذ غير صورة الفتاة في أطمارها(1) السوداء وسرها الذي لم أنفذ إليه بعد. إن سرها هو سر القضية. وإني لتدفعني إلى استجلاء الأمر رغبة لا شأن لها بالعمل. إني أيضاً أريد أن أعلم. وسارت القافلة حتى بلغت مصرفاً متسعاً عميقاً زاخراً بالماء، ركبت عليه خشبة من جذوع النخل في عرض الذراع. وأراد الخفير أن يدفع عجز حصاني ليجتاز بي المصرف على هذه الخشبة التي في ضيق الصراط فانتبهت وصحت:

– أنت مجنون يا خفير.. أمرّ من هنا أنا والحصان؟

فبدت على وجه الرجل دهشة:

– سبق لك يا سعادة البك المرور من هنا بالليل أنت والحصان ده.

فنظرت إلى الخشبة في شبه رعب:

– أنا؟ عديت بالليل المصرف من هنا على الخشبة دي؟ وكنت وقتها فوق الحصان ده؟ مستحيل!

– الطريق واسع يا بك والحصان عاقل..

ولم أرد أن أصغي إلى كلام الخفير أكثر من ذلك. فإذا كانت هذه الخشبة طريقاً متسعاً في نظر هذا الرجل فهو من غير شك سيجتاز الصراط في الآخرة راكباً جملاً. أما عقل الحصان فإن ضمِنَه هو، وهو ليس راكبه، فما يحملني أنا الراكب على هذه الضمانة الخطرة؟ وأسرعت فنزلت إلى الأرض واجتزت المصرف ماشياً على قدمي فوق الخشبة، معتمداً على عصاي...

1: الأطمار: جمع طمر وهو الثوب البالي

12 أكتوبر ...

لما عدنا كان ميعاد الجلسة قد حان. ودنت سيارتنا من المحكمة فشاهدنا الأهالي ببابها مكدسين كالذباب. وكان مساعدي قد خَرَّ إلى جواري صريع الكرى، ولم يهمني أمره، ولم يدر بخلدي قط أن أدعوه وهو على هذه الحال من التعب إلى مشاهدة الجلسة بجواري كما شهد التحقيق. إنه لم يعتد بعد وصل الليل بالنهار. وحسبه هذه السهرة الممتعة، فلأترفقنّ به في أول عهده بالخدمة. وما إن مررنا بالمحكمة حتى أمرت السائق بالوقوف وأوصيته أن يمضي بالمساعد إلى منزله، وحييت المأمور ونزلت أشق طريقاً بين أكوام الرجال والنساء والأطفال. ودخلت حجرة المداولة فوجدت القاضي في الانتظار. وما كدت أرى وجه القاضي حتى وجمت، ففي المحكمة قاضيان يتناوبان العمل، أحدهما يقيم في القاهرة ولا يأتي إلا يوم الجلسة في أول قطار، ويسرع في نظر القضايا حتى يلحق قطار الحادية عشرة الذي يعود إلى القاهرة. ومهما زادت القضايا وبلغ عددها فإن هذا القطار لم يفت

القاضي يوماً قط. أما القاضي الثاني فهو رجل ذو وسواس، وهو بعد يقيم مع أسرته في دائرة المركز، فهو يبطئ في نظر القضايا خشية العجلة والغلط ولعله أيضاً يريد شغل وقته وتسلية ضجره في هذا الريف وليس أمامه قطار يحرص على ميعاده، فهو من الصباح يجلس إلى المنصة وكأنه قطعة منها سُمِّرت فيها فلا ينفصل عنها إلا قبيل العصر. ويستأنف الجلسة في أكثر الأحيان عند المساء. وكانت تذيقني جلسته مرّ العذاب، فهي الحبس بعينه، وكأنما قضي علي أن أُربط إلى منصتي لا أبدي حراكاً طول النهار، وقد وضع حول عنقي وتحت إبطي ذلك الوسام الأحمر الأخضر كأنه الغلّ. أهو انتقام إلهي لهؤلاء الأبرياء الذين دفعت بهم إلى الحبس دون أن أقصد؟ أترى أخطاء المهنة تقع تبعاتها[1] علينا فندفع ثمنها في الحياة دون أن نعرف؟

ووجمت لرؤية القاضي إذا أدركت أني وقعت في جلسة لا ترحم بعد ليلة كلها عمل. ولست أدري ما الذي طمس ذاكرتي فحسبت خطأً أن اليوم نوبة القاضي السريع.



دخلت الجلسة، وكان أول ما فعلت أن نظرت في «الرول» فإذا أمامنا سبعون مخالفة وأربعون جنحة. عدد والحمد لله كفيل أن يجلسنا بلا حراك مع هذا القاضي طول اليوم. على أن القضايا دائماً عند هذا القاضي أكثر منها عند القاضي الآخر، والسبب بسيط: أن القاضي الموسوس لا يحكم في المخالفة بأكثر من غرامة عشرين قرشاً، بينما الآخر يرفع سعر الغرامة إلى خمسين، وعلم المخالفون والمتهمون بذلك فجعلوا كل همهم الهروب من صاحب السعر المرتفع والالتجاء إلى صاحب السعر المناسب. وطالما تبرَّمَ هذا القاضي وشكا من ازدياد عمله يوماً عن يوم دون أن يدري العلة. فكنت

1– مسؤولياتها

أقول في نفسي: «ارفع أسعارك تَرَ ما يسرك» وبدأ المحضر ينادي أسماء المتهمين من ورقة في يده. وقزمان أفندي المحضر رجل مسنّ أبيض الشعر والشاربين ذو منظر وهيئة يليقان برئيس محكمة عليا، وهو إذا نادى تعاظم في حركاته وإشاراته وصوته، والتفت إلى الحاجب بالباب التفاتة الآمر الناهي، فيردد الحاجب الاسم خارج قاعة الجلسة كما تلقاه من المحضر، ولكن في مدّ وغنّ ونعمة كنغمة الباعة المتجولين وقد لاحظ ذلك أحد القضاة مرة فقال له: «أنت يا شعبان قاعد تنادي على قضايا جنح ومخالفات، أو على بطاطة وبلح أمهات؟» فأجابه الحاجب: «جنح ومخالفات أو بلح أمهات، كله أكل عيش».

ومَثُل أول المخالفين أمام القاضي الغارق في الأوراق فرفع القاضي رأسه ووضع منظاره السميك على أنفه، وقال للماثل بين يديه:

– أنت يا رجل خالفت لائحة السلخانات بأن أجريت ذبح خروف خارج السلخانة.

– يا سيدي القاضي، الخروف.. ذبحناه. ولا مؤاخذة، في ليلة حظ «عقبال عندك» بمناسبة طهور الولد.

– غرامة «عشرين قرش». غيره...

فنادى المحضر. ونادى ثم نادى... مخالفات متتابعة كلها من ذلك النوع الذي مضى الحكم فيه... وقد تركت القاضي يحكم وجعلت أروِّح عن نفسي بمشاهدة الأهالي الحاضرين في الجلسة. وقد ملأوا المقاعد «والدكك» وفاض فيضهم على الأرض والممرات.. فجلسوا القرفصاء كأنهم الماشية يرفعون عيونهم الخاشعة إلى القاضي وهو ينطق الحكم كأنه راع في يديه عصاً. وضاق ذرع القاضي بذلك اللون المتكرر من المخالفات فصاح:

– فهموني الحكاية! الجلسة كلها خرفان خارج السلخانة.!

وحملق في الناس بعينين كالحمصتين خلف المنظار الراقص على طرف

أنفه، ولم يفطن أحد ولا هو نفسه لما في هذه العبارة من تعريض. ومضى المحضر ينادي وقد تغير قليلاً نوع المخالفة ودخلنا في نوع جديد فقد قال القاضي للمخالف الذي حضر:

– أنت يا رجل متهم بأنك غسلت ملابسك في الترعة.

– يا سعادة القاضي ربنا يعلي مراتبك؟ تحكم علي بغرامة لأني غسلت ملابسي؟

– لأنك غسلتها في الترعة.

– وأغسلها «فين»؟

فتردد القاضي وتفكر ولم يستطع جواباً. ذلك أنه يعرف أن هؤلاء المساكين لا يملكون في تلك القرى أحواضاً يصب فيها الماء المقطر الصافي من الأنابيب، فهم قد تركوا طول حياتهم يعيشون كالسائمة، ومع ذلك يطلب إليهم أن يخضعوا إلى قانون قد استورد من الخارج على أحدث طراز، والتفت القاضي إليّ وقال:

– النيابة.

– النيابة ليس من شأنها أن تبحث أين يغسل هذا الرجل ملابسه ولكن ما يعنيها هو تطبيق القانون! فأشاح القاضي بوجهه عني وأطرق قليلاً وهز رأسه ثم قال في سرعة من يزيح عن كاهله حملاً:

– غرامة عشرين! غيره.

فصاح قزمان أفندي باسم المخالف التالي فظهر رجل كهل من المزارعين يبدو من زرقة «شال» عمامته «المزهرة» ومن جلبابه الكشمير وعباءته الجوخ الأمبريال وحذائه «اللستيك» الفاقع في صفرته، أنه على جانب من اليسار واستواء الحال. فما أن مثل حتى ابتدره القاضي:

– أنت يا شيخ، أنت متهم بأنك لم تسجل كلبك في الميعاد القانوني.

فتنحنح الرجل وهز رأسه وتمتم كأنه يستغفر ويسترجع.

– عشنا وشفنا الكلاب تتسجل «زي الأطيان» وتبقى لها حيثية!

– غرامة عشرين.. غيره

ومضت الأحكام في جميع المخالفات على هذا النحو، ولم أر واحداً من المخالفين قد بدا عليه أنه يؤمن بحقيقة ما ارتكب، إنما هو غرم وقع عليهم من السماء كما تقع المصائب، وإتاوة يؤدونها. لأن القانون يقول: إنهم يجب عليهم أن يؤدوها! ولطالما سألت نفسي عن معنى هذه المحاكمة، أنستطيع أن نسمي هذا القضاء رادعاً والمذنب لا يدرك مطلقاً أنه مذنب؟ وفرغنا من المخالفات وصاح المحضر: «قضايا الجنح» ونظر في ورقة «الرول» ونادى «أم السعد بنت إبراهيم الجرف» فظهرت فلاحة عجوز تدب في وسط القاعة حتى بلغت المنصة ووقفت بين يدي قزمان أفندي المحضر. فوجهها إلى القاضي فوقفت تنظر إليه ببصر ضعيف ثم لم تلبث أن تحولت عنه وعادت إلى الوقوف بين يدي المحضر. وسألها القاضي ووجهه في الورق:

– اسمك؟

– محسوبتك أم السعد.

قالتها وكأنها توجه الخطاب إلى المحضر فغمزها قزمان أفندي ووجَّهَها إلى المنصة مرة أخرى وسألها القاضي:

– صنعتك؟

– صنعتي حرمة[1]

– أنت متهمة أنك عضضت أصبع الشيخ حسن عمارة.

فتركت المنصة ووجهت الكلام إلى المحضر:

– وحياة هيبتك وشيبتك إني ماعبت أبداً. أنا حلفت ووقع مني يمين أن البنية ما يقل مهرها عن العشرين بنتو...

1– ولية

فرفع القاضي رأسه وثبت منظاره ونظر إليها صائحاً:

– تعالي كلميني هنا، أنا القاضي أنا، العضة حصلت منك؟ قولي نعم أو لا، كلمة واحدة.

– عضة؟ حد الله! أنا صحيح قبيحة، لكن كله إلا العض.

فصاح القاضي في المحضر: «هات الشاهد» فحضر المجني عليه وقد لف بنصره في رباط صحي، فسأله القاضي عن اسمه وصناعته وحلفه اليمين أن لا يقول غير الحق واستوضحه الأمر. فقال الرجل:

– أنا يا حضرة القاضي لا لي في الطور ولا في الطحين. والقصة وما فيها أني كنت واسطة خير.

وسكت. كأنه قد أبان وأفصح عن سر القضية. فحملق فيه القاضي وهو يكظم غيظه، ثم انتهره وأمره أن يقص ما حدث بالتفصيل، فبسط الرجل الأمر قائلاً: إن لهذه المتهمة ابنة تدعى ست أبوها، خطبها فلاح يدعى «السيد حريشة» وعرض مهراً قدره خمسة عشر بنتو فلم تقبل أمها بغير العشرين، ووقف الأمر عند هذا الحد إلى أن جاء ذات يوم شقيق الخاطب وهو صبي صغير يطلق عليه اسم «الزنجر» فذهب من تلقاء نفسه إلى أهل العروس وأبلغهم كذباً أن الخاطب قد قبل الشروط، ثم رجع إلى أخيه وأخبره أن أهل البنت قد رضوا النزول بالمهر كما عرض، وكان من أثر عبث هذا الصبي ومكره بالطرفين أن حُدّد يوم لقراءة الفاتحة في بيت العروس، وانتدب الخاطب الشيخ عمارة هذا والشيخ فرج هذا ليكونا شاهديه. وتقابل الجميع وذبح والد البنت أوزة. وما كاد الطعام يُهيَّأ ويُقدَّم إلى الضيوف حتى ذُكِر المهر. وظهرت الأكذوبة وإذا الموقف لم يتغير، واحتدم الجدال بين الطرفين. وصاحت أم البنت تولول في صحن الدار: يا مصيبتنا الكبيرة يا شماتة الأعادي والنبي ما أسلِّم بنتي بأقل من عشرين. وخرجت المرأة في وسط الرجال كالمجنونة تدافع عن حق ابنتها وتخشى أن ينهي الرجال الأمر فيما بينهم بما لا ترضى، وهزت الشيخ

حسن الأريحية فلم يضع يده في طعام وقام إلى المرأة يداورها ويحاورها ويقنعها. بينما مد زميله الشيخ فرج يده إلى الأوزة وينهش منها نهشاً دون أن يدخل في النزاع المحتدم. ويظهر أن التحمس من الجانبين قد جاوز حد الكلام وإذا الشيخ حسن يرى يده لا في طبق الأوز ولكن في فم العجوز؛ فصرخ صرخة داوية وانقلبت الدار شر منقلب، واختلط الحابل بالنابل، وجذب الشيخ حسن رفيقه، فانتزعه من أمام الطعام انتزاعاً، وخرج به وهو يحرق الأرم: فهذا الرفيق لم يقل كلمة وحظي بالأكل، وهو الذي تحمس قد خرج من الوليمة بجوعه، وقد أكلت العجوز أصبعه...

واسترسل المجني عليه في الكلام. وفجأة أخذت القاضي خلجة. وتيقظ وسواسه فقاطع المتكلم، وقال كالمخاطب لنفسه: «يا ترى أنا حلفت الشاهد اليمين». والتفت إليّ قائلاً: «يا حضرة وكيل النيابة، أنا حلفت الشاهد اليمين»؟؟ فجعلت أتذكر... ولم يستطع القاضي طرد الشك فصاح: «احلف يا رجل: والله العظيم أقول الحق» فحلف الرجل. فصاح به القاضي: «اذكر أقوالك من أولها».

فعلمت أننا لن ننتهي، وبلغ الضيق أنفي وتثاءبت وغرقت في مقعدي وقد عبث النوم بأجفاني، ومضى وقت لست أدري مقداره، وإذا صوت القاضي يصيح بي: «النيابة! طلبات النيابة». ففتحت عينين حمراوين لا يبدو فيهما غير طلب النوم، فأخبرني القاضي أنه اطلع الآن على تقرير الطبيب الشرعي فإذا الإصابة قد تخلف عنها عاهة مستديمة هي فقد «السلامية» الوسطى للبنصر، فاعتدلت في مقعدي وطلبت في الحال الحكم بعدم الاختصاص. فالتفت القاضي إلى العجوز قائلاً:

– الواقعة أصبحت جناية من اختصاص محكمة الجنايات. فلم يبدُ على المرأة أنها فهمت الفارق، فالعضة في نظرها هي مازالت العضة، فما الذي حَوَّلها من جنحة إلى جناية؟ آه من هذا القانون الذي لا يمكن أن يفهم كنهه

هؤلاء المساكين!

ونوديت القضية التالية، فإذا هي شجار بالهراوات وقع بين والد «ست أبوها» وبين أهل الزوج (السيد حريشة) فلقد تم الزواج بين الطرفين آخر الأمر. وبعث الزوج بعض أهله ومعهم جمل لاستلام العروس من بيت أبيها. فقابلهم الأب محتداً صارخاً في وجوههم «جمل» ؟ بقى بنتي تخرج على جمل! أبداً. لابد من «الكومبيل».

وتجادل الطرفان فيمن يدفع ثمن هذه البدعة التي رماها بهم تطور العصر. وأدى الجدال إلى رفع العصي وإسالة بعض قطرات من الدماء لا مناص منها في مثل هذه الظروف. وانتهى الأمر بأن أخرج أحد الساعين في الخير ريالاً من جيبه واستأجر سيارة من تلك السيارات التي تمر بالطرق الزراعية، وحكم القاضي في هذه القضية ثم صاح:

– «انتهينا من الفرح» و«الدخلة» على خير!... غيره! فنادى المحضر بصوته الممتلئ «قضايا المحابيس» وذكر اسماً من الأسماء، فدوت صلصلة السلاسل ونهض من بين لابسي الخيش رجل فك الحارس قيده. ونهض من بين المحامين أفندي ذو بطن كأنها القربة المملوءة وقال: «حاضر مع المتهم». فقلت في نفسي «تلك قضية لها محام لن يتركنا قبل أن يفرغ في رؤوسنا ما شاء بحجة حرية الدفاع. فلأغمض عيني منذ الآن فرأسي أحوج ما يكون إلى الراحة بعد سهر الليل. وسمعت القاضي يقول للمحبوس:

– أنت متهم بأنك سرقت «وابور غاز»...

– أنا صحيح لقيت الوابور قدام باب الدكان. لكن لا سرقت ولا نهبت...

فالتفت القاضي إلى المحضر قائلاً: «هات الشاهد» فحضر رجل على رأسه لبدة بيضاء وعلى منكبيه «دفية» فحلف اليمين وقال إنه أشغل «وابور الغاز» ليهيئ الشاي لبعض «الزبائن» الجالسين داخل الحانوت. فهو بَدّال ريفي صغير يبيع السكر والبن والشاي والتبغ ويجتمع لديه أحياناً بعض

الناس كأنهم في شبه مقهى، ولقد وضع الوابور مشتغلاً عند عتبة الباب في الطريق ودخل يحضر الإبريق وما إن عاد حتى رأى المتهم قد حمل الوابور بناره وجرى به. وجعل الشاهد يسهب ويستشهد بمن حضر ومن جرى معه خلف السارق، والقاضي مطرق وقد علمت من هيئته أن يفكر في شيء آخر. وفجأة نظر إليّ وقال كالمخاطب لنفسه: «أنا حلفت الشاهد اليمين»؟ فما تمالكت أن صحت في ضيق: «سبحان **الله**! أنا سمعت الشاهد حلف»، فقال لي القاضي: «أنت متأكد»؟ فشعرت أن روحي تفارقني فهمست: «تحب أني أحلف لك أنه حلف»؟ فاطمأن القاضي بعض الاطمئنان وأصغى إلى بقية الشهود في صمت وانتباه. ولم يطق المتهم صبراً فنهض بغتة كالمستغيث:

– يا حضرة القاضي! في الدنيا «حرامي» يسرق «وابور جاز» بناره؟!

فأسكته القاضي بإشارة من يده قائلاً:

– تسألني أنا؟! أنا عمري ما اشتغلت «حرامي»! ونظر إلى منصة الدفاع، فقام المحامي عن المتهم يصيح قائلاً: «يا حضرة الرئيس! نحن لم نصادف وابور، ولا رأينا وابور، ولا مررنا في طريق به وابور... والقضية ملفقة من ألفها إلى يائها..». وأراد المحامي أن ينطلق في هذا الكلام وأن يصول ويجول. ولكن القاضي قاطعه:

– حلمك يا أستاذ. المتهم نفسه معترف بأنه صحيح لقى الوابور قدام باب الدكان.

فضرب الأستاذ وجه المنصة بقبضته وقال:

– هذا سوء دفاع من موكلي.

فأجاب القاضي في هدوء:

– غرض حضرتك أن أصدق حسن دفاعك وأكذب الحقيقة التي نطق بها موكلك أمامنا جميعاً!

فاحتج المحامي ورفع عقيرته وقد بدا إليّ أن كل همه أن يجلجل صوته

في الجسلة، وأن يتصبب عرقه فيمسحه بمنديله وينظر إلى «زبونه» كأنما يريه الجهد الذي يتكبده من أجله والعناية التي يبذلها في سبيله. وكان التعب والضيق والحبس بلا حراك أمام منصتي قد صيرني شخصاً لا يعي ولا يفهم ما يدور حوله فأخفيت وجهي في ملف من ملفات القضايا واستسلمت للنعاس.

13 أكتوبر ...

انتهت الجلسة عند العصر، وقد خرجت منها محطم الأعصاب. وما كدت أفترق عن القاضي حتى وجدت في وجهي أحد العساكر يحمل أكداساً من «نماذج» تنفيذ الأحكام، يقدمها إليّ للتوقيع. فوضعت إمضائي دون وعي على هذه الأوراق التي ليس لها آخر، وإمضائي الآن لا يمت بصلة الشبه إلى اسمي، فقد أصبح مع السرعة وكثرة التوقيع خطاً أو خطين ألقيهما حيثما اتفق. وما إن فرغت من ذلك وقد تصبب مني العرق حتى سمعت من يضرب الأسفلت بحذائه ويرفع كفه بالسلام:

– التحقيق منتظر فوق في قضية ضرب النار!

ولكن للقوة الآدمية حدوداً. ولم أتبلغ بلقمة ولم أطرح جسمي على فراش منذ... منذ أمس الأول. فما تمالكت أن قلت:

– ضرب نار في عينيك؟ لو كنا عسكر في الخنادق، أو في حرب الدردنيل لرأفوا بحالنا وخافوا على صحتنا...

لكن ما ذنب الخفير أوجه إليه هذا الكلام؟ فتركته وسرت في طريقي، وصعدت إلى مكتبي في الطابق الثاني فألفيت ببابه الفتاة «ريم» منتظرة مع الحراس وعلى مقربة منها الشيخ عصفور بعوده الأخضر، ولست أدري ماذا ينتظر مع المنتظرين؟ وأنعشني قليلاً مرأى الفتاة كما ينتعش العشب الذابل بقطرات الندى. ودخلت حجرتي فرأيت المأمور والمعاون وكاتب التحقيق جالسين في نشاط المستيقظ من نوم مريح، فعلمت أنهم آتون من منازلهم وأنهم الآن على استعداد لقتل الوقت في هذه القضية، فذلك خير من لعب «الطاولة» في النادي أو مص القصب أمام الأجزاخانة. أما أنا فإنسان لا يصلح الآن لشيء إلا للرقاد سبع ساعات متواليات. فأعلنت الحاضرين برغبتي في تأجيل التحقيق إلى الغد، فأذعنوا. ولكن بدا مشكل لم يفطن إليه أحد: هذه الفتاة أين تبيت ليلتها؟ إنها الآن على مسافة بعيدة من قريتها. وليس من الرأي أن تعود لتأتي مع الصباح. فقد يتصل بها بعض من يعنيهم أمر القضية من الأهالي والشهود فيلقنونها ما لا يستقيم مع الصدق والحق، وهي لا تعرف أحداً في هذا المركز ولا أهل لها به. هنا صاح المأمور كمن وجد الحل السعيد الموفق:

– المسألة بسيطة. البنت تنام في بيتي للصبح. فالتفتنا إليه جميعاً في شبه ذعر، ثم تمالكنا أنفسنا، ولست أدري كيف دب فينا نحن الحاضرين نفس الشعور في نفس الوقت. حتى الشيخ عصفور، وقد زحف خلفي ودلف إلى الحجرة، ظهر في عينيه القلق. وكان الموقف دقيقاً. إن أي اعتراض منا معناه الريبة في سلوك حضرة المأمور:

العجيب أن الحاضرين كلهم قد أطرقوا ووجموا، وأراد المأمور أن يدخل علينا الاطمئنان فقال:

– أنا غرضي أنها تكون في محل أمين بين زوجتي وأولادي.

ولم أجد بدّاً من الإذعان. وتركت المكان وانصرفت إلى منزلي، وتناولت

شيئاً من الطعام على عجل. ثم أويت إلى فراشي واستغرقت في نوم لم أصح منه إلا عند منتصف الليل. قمت عطشان فشربت جرعة من «القلة» الفخار بالنافذة وتذكرت الفتاة وتخيلتها في بيت صاحبنا فنفر من رأسي النوم. وتمنيت لو يقع الآن حادث أقوم له ومعي المأمور ولكن الحوادث كالقطط إذا ناديتها رفضت المجيء وإذا طردتها جاءت تتمسح بالأقدام. ولم أجد ما أصنع. وخالجتني رِيَب وشكوك. وطال الليل في نظري وسمج وتمنيت طلوع النهار. وأردت أن أشغل فكري بتدوين يومياتي فجمد القلم في يدي. ووقع بصري على أكوام من قضايا الجنح والمخالفات والعوارض من «إيراد» اليومين السابقين أرسلها إلي كاتب الجدول لقراءتها وتقييدها ووصف التهمة وتقديمها إلى الجلسات. فلم آنس عندي ميلاً إلى العمل.. فاتجهت إلى النافذة وفتحتها واستنشقت هواء الليل الرطب، ونظرت إلى النجوم تشرف على هذا السكون الشامل في هذا الريف النائم، كأنها عيون ساهرة مطلعة على خفايا الأشياء.

فجأة خطر لي أن أرتدي ثيابي وأن أنزل إلى الطريق وأدور حول منزل المأمور. ما هذا الجنون؟ أنا أفعل ذلك؟ وإذا (ضبطني) خفير الدرك؟ إنه قد يعرف شخصي فيعتذر. ولكنه سيخبر الناس ويشيع الخبر وتكون الفضيحة. لا مفر إذن من انتظار الصباح وما يأتي به...

على أن الله لطف بي آخر الأمر فأرسل إليّ إشارة تليفونية، طالعتها في الحال فإذا هي واقعة تافهة مما لا نقوم لمثلها بالليل:

«... بمرور قطار البضاعة نمرة 309 خط الدلتا الضيقة عند الكيلو 17 أثناء عمل مناورة وجد مسمار حدادي على الشريط والحادثة بفعل فاعل مجهول.. إلخ..». وقد أشر المأمور في ذيل الإشارة بانتداب حضرة معاون الإدارة للانتقال وإخطار البك وكيل النيابة للعلم. ومعنى ذلك أنه لن يقوم ولا يريد لي أن أقوم ولكن كيف أضيع هذه الفرصة التي هبطت من السماء؟

ليس أحب إلي الليلة من أن أقلق راحتي وراحة حضرة المأمور. وارتديت في الحال ثيابي وأمرت بإحضار السيارة ومررت بمنزل صاحبنا. وأطلقت عليه من يوسع بابه طرقاً ويخبره بانتقالي. فأطل الرجل من نافذته صائحاً:

– مسمار صغير نقوم له كلنا بالليل!

فأخرجت رأسي من نافذة السيارة:

– لو كانت إبرة. ما دامت الحادثة بفعل فاعل أصبحت جناية.

لاحظ أنها جناية تعطيل قطار، أخطر جناية في الدنيا. لابد من حضورك يا حضرة المأمور.

– لابد... أنا انتدبت معاون الإدارة.

– لابد من حضورك شخصياً.

– الليلة.. مستحيل.. أنا الليلة... تعبان...

– كلنا في التعب سوا: لكن الواجب يحتم علينا...!

فأطرق المأمور لحظة مفكراً في ضيق وامتعاض، ورأى عزيمتي واستماتتي، وخشي أن يعارضني في أمر متعلق بالعمل. فأذعن وطلب إلي الانتظار هنيهة حتى يرتدي ثيابه، ونزل وجلس إلى جانبي في السيارة وهو ينفخ من الغيظ. وتنبهت إلى غيبة الشيخ عصفور. إذ على الرغم من صوت البوق لم يبدُ له أثر، وكان فكر المأمور مشغولاً هذه المرة، فلم يفطن لغياب الشيخ، فلقد مضى في إطراقه برهة ثم قال:

– أي نعم! الواجب يحتم علينا.. لكن يعني.. مسمار!؟

فأغمضت عيني حتى لا ينتظر مني جواباً، فاستطرد:

– الله يمسيه بالخير وكيل النيابة سلفك. كان يسأل في قضية القتل شاهدين فقط لا غير ويقفل محضره ويميل علي ويقول: «هو القتيل أبونا ولا أخونا؟ قم ياشيخ نبلّ ريقنا»!

ولم أعقب على كلامه بحرف، ولم أنبس طول الطريق بكلمة حتى بلغنا

الكيلو 17. ووجدنا عمال الدريسة وقطار البضاعة وسائقه. وقدم إلينا نائب العمدة المسمار، وأشار إلى عربة محملة بأكياس من القطن كادت تخرج عن القضيب؟ فتناولت المسمار بين أصابعي وجعلت أفحصه، والمأمور خلفي يقول باسماً:

– «كان العطشجي فين لما الوابور وقع انكسر، فعلمت أنه يهزل، وأنه يشير إلى تلك الأغلبية التي كانت شائعة منذ ثلاثين عاماً يوم كانت شفيقة القبطية تجلس على عرش الطرب. وسمع السائق تلك العبارة وحملها محمل الجد فتقدم يقول:

– لا حصل كسر ولا وقوع يا فندم! وأنا ساعة الحادثة كنت جنب الفرملة، وربطت في الحال..

ومضى يسرد آراءه قائلاً: إن أهل هذه المنطقة بسطاء العقول ولعلهم من أصلاب تلك القرية التي «عزمت القطار» في أول ظهوره وقدمت إليه الطعام والشراب، ولا يبعد أن يكون أحد هؤلاء الأهالي قد دفعه العبط أو حب الاستطلاع أن يضع هذا المسمار على الخط الحديدي ليرى مايصنع القطار، وكيف يتصرف، وكيف يقع على جنبه أو على وجهه. وتقدم عامل دريسة فقال: إن المسألة ليست مسألة بساطة أو بلاهة. إنما هو انتقام من الشركة فالأهالي في هذه الجهة يعيشون على استخراج الحصى من الجبل ونقله على الحمير والجمال وبيعه للمقاولين، فجاءت شركة سكة حديد الدلتا الإنجليزية فمدت هذا الخط حديثاً إلى الجبل وخصت نفسها بهذا المورد وانتزعت بذلك هذا الحصى من أفواه هؤلاء الجياع المساكين، وسواء أكان هذا هو السبب أم ذاك فإن الفاعل هنا أيضاً غير معروف ولا ينتظر معرفته. وقد انتهينا من الأمر بأن وضعنا المسمار داخل «حرز» وختمنا عليه بالشمع الأحمر وأرفقناه بالأوراق.. إلى آخر هذا الكلام الرسمي الذي هو كل بضاعتنا، وكان الندى قد تساقط على رؤوسنا فرأى المأمور فتح المحضر في «دوار» العمدة

فسألت عن المسافة بيننا، وبينه، فرد نائبه قائلاً:

– «فركة كعب» يا حضرة البك!

فصدقناه، وسرنا على أقدامنا حتى كادت مفاصلنا تنخلع، وما وصلنا حتى أذَّنَ الفجر في زاوية الناحية، وتركت المأمور «يسبخ» لنائب العمدة على «فركة» الكعب، وانهمكت في فتح المحضر وسؤال الشهود حتى فرغت منهم جميعاً، وأردت أن أختم محضري، وإذا بي أرى حركة نصب مائدة وإعداد طعام وحضرة المأمور قائماً قاعداً ينظر في الخوان ويدخل ويخرج دون أن أعلم ما يشغله من الأمر، وأخيراً سمعته يقول للعمدة في ناحية:

– اسمع يا عمدة! البك لا يحب الخرفان على الصبح ولا الديوك ولا حاجة أبداً، ولكن لا بأس من كم زغلولة مدفونة في الأرز، والقراقيش إياها والفطير المشلتت: وإن كان عليه كم كتكوت محمر مفيش ضرر، واللبن الرايب طبعاً شيء مفيد للصحة، ولا بأس من كم بيضة مقلية في القشدة، كفاية، إياك يا عمدة تعمل حاجة زيادة، البك الوكيل أكلته ضعيفة، إن كان عندك عسل نحل بشمعه لا بأس. قرصين جبنة ضاني لا مانع، طبق كعك وغريبة... الغرض حاجات خفيفة لطيفة وأنت سيد العارفين!

أطرقت لهذا الكلام وأحمر وجهي ولم أدر ما أصنع، ورأيت الخير في أن أسرع بالانصراف. فطويت أوراقي على عجل. ولكن عين المأمور لحظتني وأدرك غرضي. فجاءني مسرعاً يسألني:

– التحقيق انتهى؟

– من زمان!

فنظر إلى المائدة التي لم يوضع عليها شيء بعد ثم نظر إليّ:

– جميع الشهود أعطوا أقوالهم؟

– جميعهم.

– ولا شاهد واحد فاضل...

– ولا ربع شاهد.

فتركني وخرج سريعاً ثم عاد بعد قليل يجذب أحد الأهالي من «حزامه» ودفعه أمامي دفعاً وأشار إليه وقال:

– شاهد مهم قوي، عنده أقوال.

فأبديت ارتيابي في قيمة كلام هذا الرجل وأظهرت رغبتي في الاكتفاء بمن سألت من شهود. ولكن المأمور ألح في الرجاء أن أصغي إلى هذا الشاهد أيضاً فإن لديه معلومات ذات أهمية عظمى. فنشرت ورقي من جديد وما كدت أبدأ في إلقاء السؤال، حتى برز العمدة وخلفه خدمه يضعون الطعام على المائدة.. وارتفع صوت سيد الدار يدعونا إلى الفطور... فاعتذرت بضعف صحتي وإمساكي عن الأكل عادة في الصباح.. فانطلق من العمدة قسم غليظ... وتواطأ في الحال مع المأمور على حملي من مكاني حملاً... وإذا بي أجد نفسي في صدر المائدة... فأذعنت، وجعلت أنظر ساعة إلى هؤلاء المخلوقات وبينهم المأمور، يأكلون وينهشون ويزدردون وقد انشغلوا بأنفسهم فلم يفطنوا حتى إلى قلة أكلي، وقمت من بينهم متسللاً بعد قليل وجلست في مكاني الأول أنتظر تارة وأتصفح محضري تارة إلى أن فرغوا من أمر بطونهم وأتوا على ما فوق الخوان وقاموا يمسحون أيديهم في غطاء المائدة الذي لم يَرَ وجه الصابون منذ عامين وأقبل عليّ المأمور يتجشأ ويقول:

– أظن نرجع ما دام التحقيق انتهى...

فأشرت إلى الشاهد الذي كان قد جاءني به وقد نسيه الآن فيما يظهر:

– لما نسأل الشاهد المهم...!

فأجاب المأمور من فوره:

– لا مهم ولا حاجة...

وتركني واتجه إلى الفلاح وقال له:

– أنت يا ولد عندك معلومات...؟

فأجاب الفلاح:

– «لع»...

أي: لا، فالتفت المأمور إليّ قائلاً:

– جحش **الله** في برسيمه...! لا عنده معلومات ولا يحزنون.. قم بنا يا سعادة البك نرجع بلدنا...!

ونهضنا عائدين، وقد ارتفعت الشمس... ولم نكد نبلغ دار المركز حتى أقبل علينا «البلوكامين» يحمل إشارة من المستشفى الأميري أن المصاب «قمر الدولة علوان» قد أفاق من غيبوبته والآن يمكن استجوابه، فأسرعنا إلى المستشفى لا نلوي على شيء، خشية أن يعود المصاب إلى الإغماء أو سوء الحال، فلا نستطيع أبداً أن نستخلص من بين شفتيه سر الحادث..

ودخلنا المستشفى وسألنا عن «الحكيمباشي» فقيل لنا إنه في قاعة العمليات، فسرنا في الردهة الموصلة إليها، فقابلنا تلك الأسِرَّة الصغيرة والمحفات التي تجري على عجلات فوق الأسفلت كأنها عربات الحمالين في المحطات الكبرى، ورأينا تلك المباخر وأدوات التعقيم تدفع على بكر ويتصاعد منها البخار، والممرضون في هرج ومرج بأرديتهم البيضاء يدفعون تلك العجلات التي تحمل أجساماً في طريق الفناء، ويدخلون بها تلك القاعة الرهيبة ويخرجون دون أن يبدو على وجوههم أثر اهتمام لموت أو حياة، فوقفت قليلاً وقد شرد خاطري وخامرني إحساس من يقف في المحطة بين القُطُر. نعم، أو لست الساعة في تلك المحطة التي يسافر منها المريض إلى العالم الآخر؟ وحانت مني التفاتة إلى باب المستشفى الكبير ورأيت العسكري المكلف بالحراسة يطرد زرافات النساء المجتمعات في ثيابهن السود، و«طرحهن» الزرق وأصواتهن التي يقطعها عويل القلق فعلمت أنه سيلقي إليهن بجثة بعد قليل. فإنهم في كل يوم يلقون خارج أسوار هذا المكان بجثة أو جثتين ليفترسها الحزن الرابض بالباب ذو الناب الأزرق في لون «النيلة»

والمخلب المعفر بالطين والتراب.

وفتح باب قاعة العمليات وخرج ممرض يحمل دلواً فيه دم سائل ومتجمد وقطع من اللحم كأنها أحشاء خروف، فنظرت في ذلك، فقال الرجل إن هذا خرج من بطن امرأة هي الساعة فوق المشرحة تحت البنج، فجمدت في موقفي. وبادر المأمور وطلب باسمي مقابلة الحكيمباشي في الحال. فذهب الممرض وعاد يفتح لنا باب قاعة العمليات، فتجلدت ودخلت وخلفي من كان معي فقابلني الحكيمباشي بابتسامة وهو مازال منحنياً في معطفه الأبيض على شيء فوق المشرحة، وقد شمر عن ذراعيه وفي يده أداة كأنها «الكماشة» وحوله رهط من أصدقائه غير الأطباء عرفت منهم بعض الأعيان في ملابسهم العادية. فدنوت ونظرت إلى الذي بين يديه فإذا هو جسم فتاة قد شق بطنها شقاً طويلاً من الصدر حتى أسفل البطن، وإذا «الكماشة» في يده تجمع الجلد الذي انشق وتخيطه بشيء كأنه المسامير الصغيرة، والطبيب يفعل ذلك في سرعة غريبة وهو يثرثر مع ضيوفه مازحاً كأنه «حاو» يفاخر بخفة يده ومهارة صنعته. ونظرت في وجه البنت الشاحب وهي كالميتة، ثم إلى جلدة بطنها وقد رشقت بالمسامير في صف طويل كأنها جلدة حذاء في يد الإسكافي، فشعرت بدوار في رأسي وخفت أن أسقط، فاعتمدت على جانب المشرحة. ولحظ الطبيب اصفرار وجهي فترك المريضة وحدق في وجهي قلقاً فأسرعت وخرجت من القاعة وأنا أقول في صوت لم يخرج إلا نصفه من حلقي:

– منتظرك يا دكتور بعد العملية.

وسألني الدكتور عما بي فلم أستطع التعليل. إني قد شاهدت كثيراً من عمليات التشريح، وطالما رأيت جثثاً تقطع أمامي وبطونا تبقر فلم أتأثر، ولكنها كانت أجساداً لا حياة فيها، أتراني شديد التأثر لمرأى الأجسام الحية تعامل معاملة الجمادات؟ أم أنها فضلة من رائحة البنج عبق بها جو قاعة

العمليات فبلغت خياشيمي إذ دنوت من جسم الفتاة؟

وأعادني الهواء الطلق خارج القاعة إلى نشاطي وجلسنا ننتظر في مكتب الحكيمباشي، ونشرب قهوة طلبها لنا «الباشتمرجي». إلى أن حضر رئيس الدار فقادنا مرحِّباً إلى «عنبر» المصاب.

وجلسنا معه خلال ممرات ازدحمت بالأَسِرَّة إذ لم تكفِ «العنابر» لإيواء هذا القدر من التعساء. ورأينا المرضى الناقهين من أصحاب «الزعابيط» الزرقاء يتناولون في نهم حساءهم في أوان صغيرة من «الألومنيوم»، وينظرون إلينا ومعنا الحكيمباشي كما ينظر القردة في حديقة الحيوانات إلى الحراس مع كبار الزائرين.

ووصلنا إلى سرير «قمر الدولة، فوجدناه ممداً لا يتحرك ونزع الحكيمباشي من رأس السرير تلك الرقعة التي يدون فيها تطورات مرضه وقرأ علينا تشخيصات طبية لم أحفل بها الساعة وقلت:

– الغرض، يمكننا استجوابه حالاً؟

أجاب الطبيب في صوت خافت:

– أظن مع الاختصار الكلي.

ثم دنا من المصاب وناداه في هدوء ففتح قليلاً عينين ذهب بريقهما وكأنهما لا يريان ولا يثبتان على شيء بعينه. فاقتربت من الرجل وسألته:

– يا قمر الدولة! من ضربك؟

فلم يجب. فأعدت عليه السؤال ففتح شفتيه ولم يقل شيئاً. فألححت عليه فبذل جهداً ظاهراً وقال كلمة واحدة:

– ريم!

فدهشت قليلاً والتفت يمنة ويسرة فوجدت المأمور وسكرتير التحقيق شأنهما شأني في الاهتمام بالأمر والعجب له فنظرت في وجه المصاب وقلت:

– وضِّح غرضك يا قمر!

فلم يجب.

– قصدك إن ريم هي نفسها؟...

فلم يبد حراكاً...

– يا قمر، يا علوان، تكلم. لابد أنك تتكلم. كلمة واحدة. الضارب! من الضارب؟

ولكننا نطلب المستحيل. فقد أغمض عينيه وقد تفصد جبينه عرقاً، فجذبني الحكيمباشي من يدي بعيداً وقال:

– كفاية!

فنظرت إلى المأمور يأساً.

– كفاية؟!

وهل ظفرنا نحن بشيء؟ لقد كان موقفنا عند دخولنا أوضح منه الآن. إنها كلمة لفظها هذا الفم الجاف بعد جهد، ليته لم يلفظها...

14 أكتوبر...

تركت المأمور يذهب إلى شأنه. وعدت إلى مكتبي بدار النيابة وعلم المساعد بعودتي فحضر وهو كالمشتاق إلى رؤيتي. ولكنه عاتب على إغفالي إياه في واقعة الليل، فتنبهت إلى أني حقيقة نسيته كل النسيان. إن اهتمامي باصطحاب المأمور تلك الليلة قد ألهاني ولاشك عن كل شيء آخر.. ومع ذلك فهي حادثة تافهة لم يستفد منها غير بطن حضرة المأمور، ولم يقع ضررها إلا على جيب حضرة العمدة. آه لهؤلاء العمد! لشد ما أرثي لحالهم! وظهر «فرّاش» المحكمة الحاج خميس. فطلبت إليه كوباً من الشاي الخفيف. والتفت إلى مساعدي فأقبل عليَّ يحدثني كمن يتحدث لمجرد الحديث، وكأني به جوعان كلام. إن الوحدة قد كادت تقتله أثناء غيبتي عنه. لقد سئم الريف. إنه لا يجد هنا قهوة واحدة يليق أن يدخلها مثله. اللهم إلا دكان ذلك البدال الرومي «طناشي» وضعت أمامه مائدتان من الخشب وكرسيان من القش. وقد أطلق عليه الأهالي اسم «الخمارة» وحتى هذا الرومي قد ارتدى جلباباً

كجلباب الفلاحين فلم يعد شيء ينم على أنه «أفرنجي» غير لون العينين والشعر. أين يتنزه؟ وأين ينفق وقته؟ هذا الشاب الذي جاء من العاصمة منذ أيام حيث الأنوار والملاهي والضجيج؟ إنه الآن لا يكاد يرى غير مبانٍ قليلة أكثرها متهدم. وغير هذه «الجحور» المسقفة بحطب القطن والذرة يأوي إليها الفلاحون. إنها في لونها الأغبر الأسمر لون الطين والسماء وفضلات البهائم، وفي تكدسها وتجمعها «كفوراً» و«عزباً» مبعثرة على بسيط المزارع، لكأنها هي نفسها قطعان من الماشية مرسلة في الغيطان. هذه القطعان من البيوت التي تعيش في بطونها ديدان من الفلاحين المساكين هي كل ما تقع العين عليه في هذه البقاع. ويزيد في كربه هذا السكون يهبط على البلدة منذ الغروب. فلا يسمع بعدئذ غير خوار الجاموس ونبح الكلاب ونهيق الحمير، ونحيب السواقي والشواديف والكباسات، وأصوات بعض الأعيرة النارية يطلقها في جوف الليل الخفراء الخصوصيون أو النظاميون، أحياناً إرهاباً للغير أو تشجيعاً لأنفسهم. إن مساعدي يريد دواء لهذا الضيق. وهل من دواء للريف غير الزواج أو السير المعوج أو المطالعة وتحرير المذكرات كما أفعل أنا كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً؟ وفكر صاحبي في الاختلاف إلى النادي، إنه لا يعلم شيئاً عن نادي هذا المركز. إنه اسم يطلق على حجرة في منزل عتيق يصعد إليها بسلم من خشب. وهي تضاء بمصباح غازي أي «كلوب» وهذا «الكلوب» هو وحده الشيء الجدير بالاحترام في الحجرة. أما أهل النادي فهم بالطبع رجال الإدارة وطبيب المركز وبعض الأعيان والموظفين وصاحب الأجزاخانة. ولا يشغل هؤلاء في ذلك المكان غير لعب الورق و«الطاولة» واغتياب الناس. فهل يليق بممثل النائب العام في هذا المركز أن يندسّ في هذه الزمرة؟ ولقد قلت لمساعدي إني «شخصياً» أفضل أن يكون عضو النيابة بعيداً عن كل هذا إذا كان يريد أن يبجله الجميع. وأنا لن أنسى ذلك اليوم الذي دعاني فيه رجال الإدارة إلى حفلة عشاء في ذلك النادي مع القاضي

المقيم تكريماً لزميل لهم منقول. ولم أستطع الاعتذار فذهبت. وإذا زجاجات الوسكي على المائدة بجوار الطعام، وقد ملأوا كأسي وكأس القاضي، ولم يفطن القاضي لنفسه فشرب وأكثر، وجعل يثرثر ويضحك حيث لا موضع للكلام والضحك وعندئذ مال عليَّ المأمور وقد سكر هو أيضاً وألقى في أذني ضاحكاً «البك القاضي فقد وقاره»! فلم أرد أن أسمع أكثر من ذلك. فانسللت منصرفاً إلى بيتي في هدوء دون أن يشعر بي هؤلاء المتخبطون في كؤوسهم. منذ ذلك اليوم وأنا لا أضع قدماً في هذا النادي. واقتنع مساعدي بكلامي، وأردت أن أزيده بياناً ليزداد حرصاً، ولكن الحاج خميس دخل حاملاً كوباً لم يكد يقع نظري عليه حتى صحت:

– ما تسقيني أحسن حبر «كوبية» وتخلص!

– صلّ على النبي يا سيدنا البك...! أنا بقى لي عشرين سنة فرّاش محكمة، وورد عليّ أصناف الأهالي والموظفين تصدق بالله...! ما ينفع في المحاكم إلا شاي مر طعم «الفورنيه»؟

فترددت قليلاً ثم لم أجد مناصاً وقلت:

– شاي المحاكم وشغل المحاكم كله مر والسلام، هات!

ووضع الرجل الكوب الزجاجي أمامي وانصرف. وما كدت أرشف رشفة حتى فتح الباب ودخل عبد المقصود أفندي رئيس القلم الجنائي بروحه الذي لا أستخف له ظلاً وقال:

– عندنا من نوع التلبس أربع قضايا.

– هات!

فذهب وأرسل إلى العسكري القادم «بالمحاضر» والمقبوض عليهم.

وأخذنا نطالع الأوراق قبل أن نستدعي أمامنا المتهمين. وجعلت من نصيبي ثلاث قضايا واستصغرت ملفاً ألقيت عليه نظره سريعة وأعطيته مساعدي وأنا أقول له: «سرقة كوز ذرة، لن نعثر لك على أسهل من مثل هذه

للسرقة. سل هذا المخلوق فستجده معترفاً في أمان **الله**»!. وبدا الاضطراب قليلاً على المساعد، فهذه أول مرة يستجوب فيها متهماً.

وتناول من يدي المحضر. وجعل يقرؤه كلمة كلمة. ويعيد قراءة هذه «القسائم» التي لم تزد على الخمس. وفرغت أنا من أمر نصيبي البالغ أضعاف ما عنده وهو ما زال منهمكاً في إعداد ملخصات وافية، وملخصات للملخصات، وأسئلة معدة إعداداً كأنها قنابل ستلقى في صدر سارق «كوز الذرة». فكتمت ضحكي، أنا أيضاً في مستهل حياتي القضائية كنت أفعل فعله. ولقد قسا عليَّ القدر أشد مما قسا على هذا الشاب، فنكبني بقضية تزوير معقدة كانت هي أول عهدي بالتحقيق. ولست أنسى اضطرابي وقتئذ وقد مثل أمامي المتهم المزور بطول وذلاقة لسانه واعتياده المثول أمام القضاة، فذهبت الأسئلة المجهزة من رأسي ولم أدر ما أقول، وانتظر الرجل واقفاً في هدوء أن أفتح فمي أو يفتح **الله** عليَّ بسؤال، وتصبب مني شبه عرق وأنا أرى المتهم أحسن مني حالاً وأربط جأشاً وأقوى امتلاكاً لأمره، وخيل إليَّ أنه يسخر مني في دخيلة نفسه. وكان كاتب التحقيق رجلاً قديماً ذا مران طويل، صادف في حياته ولاشك عشرات من المساعدين الجدد أمثالي. عرف ما بي فأسرع يعاونني ويلقنني ما ينبغي أن أبدأ به من أسئلة وأنا أتقبل منه المعاونة بأنفة وكبرياء دون أن أظهر حاجتي إلى تدخله. وأمثال هذا السكرتير الهرم من ذوي الحق المغموط والفضل المجهول مثيرون، وقد سمعت أحدهم يقول لي مشيراً إلى بعض من كبار رجال القضاء: «علمناهم الشغل ومشوا وارتفعوا وبقوا قضاة ومستشارين، والواحد منا واقف في مطرحه لا يكبر ولا يصغر، زي جحش السبخ»، تذكرت كل هذا وأنا أنظر إلى وجه مساعدي. ورأيت أن أتعهد خطاه الأولى بنفسي، فطلبت إليه أن ينحي جانباً هذه الملخصات، وأن يضغط بأصبعه على الجرس ففعل، وظهر الحاجب بالباب فأمرته بإحضار المتهم الأول، فدخل فلاح كهل قد برز من صدره

شعر أزرق أشيب كأنه شعر ضبعة مسنّ، وقلت للمساعد أن يوجه ما يحضره من أسئلة ولا يخاف، وأنا أعينه إذا توقف، فأحمر وجه الشاب وتردد، ثم تجلد ونظر إلى المتهم وسأله:

– أنت سرقت كوز الذرة؟

فاجاب الشيخ لفوره من جوف مقروح:

– من جوعي!

فنظر المساعد إليَّ وقال في لهجة الانتصار:

– اعترف المتهم بالسرقة.

فقال الرجل في بساطة:

– ومن قال إني ناكر، أنا صحيح من جوعي نزلت في غيط من الغيطان سحبت لي كوزاً..

ووقف القلم في يد المساعد، ولم يعرف ماذا يسأل بعد ذلك، والتفت إليَّ يستنجدني، فنظرت إلى الرجل سائلاً:

– سين، يا رجل لماذا لا تشتغل؟

– جيم، يا حضرة البك هات لي الشغل وعيب عليَّ إن كنت أتأخر.

لكن الفقير منا يوماً يلقى، وعَشرة ما يلقى غير الجوع.

– أنت في نظر القانون متهم بالسرقة.

– القانون يا جناب البك على عينّا وراسنا، لكن برده القانون عنده نظر ويعرف إني لحم ودم ومطلوب لي أكل.

– لك ضامن يضمنك؟

– أنا واحد على باب الله.

– تدفع كفالة؟

– كنت أكلت بها.

– إذا دفعت يا رجل خمسين قرشاً ضمان مالي يُفرَج عنك فوراً.

– خمسين قرش! وحياة راسك أنا ما وقعت عيني على صنف النقديّة من مدة شهرين. التعريفة نسيت شكله، ما اعرف إن كان لحد الساعة (مخروم) من وسطه وإلا سدوه.

فنظرت إلى مساعدي وأمليت عليه نص القرار:

– «يحبس المتهم احتياطياً أربعة أيام ويجدد له ويعمل له فيش وتشبيه»

– اسحبه يا عسكري!

فقبَّل الرجل كفه وجهاً وظهراً حامداً ربه:

– وماله. الحبس حلو. نلقى فيه على الأقل لقمة مضمونة. السلام عليكم!

وخرج الرجل يدب وقد وضع في معصمَيْه القيد. واطمأن مساعدي واستراح باله بذهاب متهمه، وطلبت القضية التالية. فظهر العسكري ومعه آخر وفتحا باب مكتبي على مصراعيه، وجذب داخل الحجرة أكثر من ثلاثين رجلاً وامرأة وولداً قد شدُّوا في حبال الليف، إذ لم يجدوا في المركز لكل هذا العدد قيوداً حديدية. فما تمالكت أن صِحت لمنظرهم:

– الله أكبر! مواشي طالعة سوق السبت؟ حِل الحبال يا عسكري!

فقال الحارس وهو يحل بأسنانه عقدة حبل:

– فتشنا يا سعادة البك بيوتهم وجدنا فيها الممنوعات. وباقي غيرهم من أهل الناحية تحت التفتيش والقبض بمعرفة حضرة الملاحظ وأورطة الهجانة!

فأدرت بصري في هؤلاء الآدميين. واستعَدْت في مخيلتي ما قرأته الساعة عن تهمتهم في الأوراق التي أمامي وقلت:

– ممنوعات!

– فاستدرك الحارس:

– الملبوسات يا فندم.

نعم. إن ما قرأت الساعة هو أن سيارة كبيرة كانت تحمل أكياساً ضخمة،

مملوءة بمختلف الملابس القطنية والصوفية من معاطف وسُتَر وسراويل، وكذلك أنواع من الأحذية الجلدية لحساب متجر في القاهرة من المتاجر الشهيرة، وكانت تجتاز ليلاً بكل هذا جسر الترعة المحاذية لدائر الناحية، فسقط منها في الماء كيس كبير مفعم بألوان الملابس، ولبث الكيس في أعماق الترعة حتى انخفض منسوبها وانحسر الماء عن البضاعة فهرعت تلك البلدة العارية إلى الكنز الذي لا يشابه كل الكنوز وتسابقت الأيدي إلى الكيس الراقد في الطين تجذب من بطنه ما تصل إليه، فإن كان سروالاً من الصوف لبس في الحال فوق الجلباب الأزرق وإن كان معطفاً من الجوخ دخل فيه الرجل (بحرامه) وإن كان حذاء لامعاً وضع في الأقدام بغير جوارب. ومضت البلدة تجري في الطرقات فرحة مهللة: «الكساوي في البحر، الكساوي في البحر...»، إلى أن رآهم رجال الحفظ واستكثروا عليهم النعمة وعدُّوها بالنسبة لهم «ممنوعات» واستغربوا أمرها واستكشفوا سرها...

ورأيت أول الأمر أن أسألهم جملة، علّني أظفر منهم باعتراف ييسر عليّ مهمتي. فألقيت عليهم نظرة شاملة:

– سرقتم الملابس؟

فأجابني من بينهم صوت عميق رزين:

– أبداً والله ما سرقنا ولا نعرف السرقة، البحر رمى علينا الكيس وكل واحد منا طال نصيبه.

فقلت للرجل من فوري:

– نصيبه؟ هو الكيس مِلك البحر والاَّ له أصحاب خواجات!

فأجاب الرجل في صوته العميق الهادئ:

– راح من بالنا أن له أصحاب يا حضرة البك ربنا يعلّي مراتبك ارأف بحال الفلاحين المساكين!

– المسألة مسألة قانون. والقانون صريح: إن كل من وجد شيئاً مملوكاً

للغير وحفظه بنية امتلاكه يعامله معاملة السارق. فهمتم؟

– فهمنا يا حضرة البك، لكن... بقى... الكساوي كانت قدام نظرنا ورماها البحر علينا والواحد منا من غير مؤاخذة عريان..

– أنت يا رجل فاكر الدنيا فوضى، والَّا فيه قانون وحكومة!

ويظهر أن الرجل لم يستطع صبراً فقال:

– بقى هي الحكومة لا منها ولا كفاية شرها؟! لا كستنا ولا تركتنا ننكسي!

– أنا مضطر إلى أن أحبسكم.

– يا جناب البك. أنتم فتشتم دورنا وسحبتم الكساوي منا، والعيال الفرحانة عادت تبكي، ورجعنا لأصلنا لا لنا ولا علينا. يبقى الحبس له لزوم؟!

– أفرج عنكم بضمان مالي.

– مالي؟! الفلاحين عرايا يا حضرة النايب!

– تفضلوا من غير مطرود! دماغي وجعني والمناقشة مع أمثالكم ضياع وقت. القانون صريح وأنا مقيَّد بنصوص أشد من الحبال الموضوعة في أيديكم. المسألة عندي قبل كل شيء مسألة قانون. «يحبس المتهمون كلهم احتياطياً أربعة أيام ويجدد لهم ويعمل لهم فيش وتشبيه» اسحبهم يا عسكري!

فخرجوا جميعاً في صف طويل وفي ذيلهم رجل يقول هامساً:

– يحبسونا لأن ربنا كسانا!

وهدأ المكان. ولكن رائحة كريهة انتشرت في الحجرة، فناديت الحاجب وأمرته يفتح النوافذ. ففعل وهو يلعن بصوت خافت هذا الجاموس الأبيض الذي لا ينبغي إدخاله حجرات الحكومة. وحانت مني التفاتة إلى مساعدي فوجدته مطرقاً مفكراً. فداخلني حب استطلاع أن أعرف ما بنفسه الآن. أتراه قد تأثر لشيء! أترى دقة الحس ورقة الشعور – التي جاء بها كما جئنا كلنا

في مبدأ عملنا الحكومي بالريف – مازالت حية أم أنها في طريق الموت.. ولكن طرقة عصا شديدة ضربت الباب عرفت فيها ضربة المأمور. ودخل صاحبنا يلهث ويصيح:

– البنت ريم...

– مالها؟!

قلتها رغماً عني في لهفة. فاستراح المأمور على كرسي وأنا انتظر الكلام من فمه بصبر نافذ. غير أنه نظر إلى الحاجب بالباب:

– اسقني وحياة عينيك!

وأخرج منديله الحرير الصناعي من كمه ومسح وجهه ورأسه وأنا على أحر من الجمر. وأخيراً التفت إليَّ وقال:

– اختفت!

فنظرت إليه مليّاً.

– تتكلم جدّ

– هربت مع الشيخ كلب!

– الشيخ عصفور؟!

– نهاره أسود!

– والعمل؟

– أمرت فرقة الهجانة تقوم في الحال تقتفي الأثر في جميع الطرق الزراعية...

– وجلسنا في صمت. وقد شرد فكر كل منا...

15 أكتوبر...

لم يمكث المأمور عندي طويلاً، فقد ذهب سريعاً وانقطعت عني أخباره، وطلبته كثيراً بالتليفون في المركز فلم يدر أحد أين مقره. كل ما عرفوه عنه أنه خرج في «البوكس فورد» مع المعاون ولم يعد، وانتظرته طول نهاري لأعرف منه..؟؟ ولكن النهار انقضى وغربت الشمس وعِيل صبري، فمشيت بنفسي إلى المركز فلم أفز بطائل، وقال لي قائل: لعله عرج على النادي فهذا ميعاد جلوسه فيه. فما ترددت، وتوجهت إلى النادي فاستقبلني أعضاؤه دهشين أول الأمر، ثم هرعوا يقدمون إليَّ الكرسي «السليم» الوحيد في تلك الحجرة زيادة في الاحتفال بي. فسألت عن المأمور، فقالوا: إنهم لم يروه وإنهم يعجبون لغيابه عن النادي حتى هذه الساعة. فلما علموا مني أنه خرج من الصباح مع المعاون في «البوكس» ولم يعد، صاحوا جميعاً من فم واحد:

– لا حول ولا قوة إلا بالله!

وصاح صوت من بينهم:

– ضعنا وضاعت فلوسنا والعوض على الله!

ولم أفطن إلى مرادهم في مبدأ أمري، ولكن التفاتة حانت مني إلى المائدة والورق المطروح عليها في انتظار اللاعبين. ففهمت للفور وتذكرت ما قيل لي من أن المأمور لم يعرف الخسارة قط في هذا النادي، وأنه اعتاد في أوائل كل شهر أن يربح كل مرتبات الموظفين ثم يظل طول الشهر يقرضهم ما يحتاجون إليه للأكل والمعاش حتى لا يموتوا جوعاً إلى أن يقبضوا، فيلاعبهم من جديد ويأخذ مرتباتهم الجديدة ويقرضهم ما يعيشون به طول الشهر، وهكذا دواليك. وقد اعتادوا هذه الحياة ورضوا بها. وهم يعزون أنفسهم بقولهم: «سواء أكانت النقود في جيبنا أم جيب حضرة المأمور فالنتيجة واحدة..». شيء واحد يقلقهم ويخيفهم أشد الخوف، هو خروج المأمور بأموال البلدة «لملاعبة» مركز آخر. فالمأمور يضجر أحياناً من ملاعبة هؤلاء المفلسين وقد تجردوا، فينتخب تارة نفراً من خيرة اللاعبين وينتقلون لمنازلة المركز المجاور كما تنتقل فرق كرة القدم... وتارة يخف المأمور بمفرده أو مع المعاون إلى أقرب بلدة يلعب «دورين» ويرجع، وتارة يستقبلون في ناديهم «منتخباً» قادماً من بلاد أخرى. هنا في مثل هذه المقارعات الحامية الوطيس بين بلدة وبلدة يتعرض للخطر جيب المأمور، أعني مرتبات المركز...

على أني لم ألبث أن أدخلت الاطمئنان على قلوبهم بقولي لهم: إن المأمور قد ذهب في غالب الظن لعمل يتعلق بقضية تشغل بالنا. فهدأوا وجلسوا لحظة ساكنين أدباً واحتشاماً، ثم أخذوا يتحدثون ويثرثرون قليلاً أثناء شرب القهوة، إلى أن قال أحدهم في نبرة الترحيب:

– ربنا عوضنا خير بتشريف البك النايب، لأن حضرة القاضي انقطع عن النادي من زمن... بسبب سوء التفاهم!...

فنظرت إلى المتكلم وقد بدا في عيني المتسائلة ما دعاه إلى الاسترسال.

– أي نعم، سوء التفاهم بينه وبين البك المأمور. وأمعن في الثرثرة فقال:

– المسألة أصلها خلاف السيدات مع بعض. الست حرم القاضي واقعة

مع الست حرم المأمور.

فأطرقت صامتاً، وظن الحاضرون أن بي رغبة إلى الإصغاء فانطلق أحدهم يقول:

– آخر أخبار أنهم طلعوا لبعض فوق الأسطح ونزلوا في بعض «ردح» من النوع «النضيف» امرأة المأمور إغاظة في صاحبتها راحت لبست سترة زوجها الرسمية «بالتاج والضبورة» وغطت رأسها من غير مؤاخذة بالطرحة أم «ترتر» وقالت لها بالصوت العالي: «أنتم حواليكم إلا قِلة القيمة لا يمشي وراكم إلا حاجب» ربابكيا «نُص عُمْر مكسَّر صابغ شعره. لكن المركز كله بالخفر والعسكر تحت أمرنا، يضرب لنا سلام». قامت امرأة القاضي نزلت ولبست لها الوسام الأحمر عهدة الحكومة فوق الفستان البمبي المسخسخ وطلعت تقول لها: «قطع لسانك وليَّة سفيهة! أنتم صحيح ما لكم إمارة إلا على غفيرين مغفلين، لكن مَن في البلد كلها يقدر يحبس ويشنق ويقول: حكَمَت المحكمة غيرنا؟»».

لقد أحسست شيئاً من الحرج في استماعي إلى هذا الكلام، فما إن فرغت من شرب القهوة حتى وضعت الفنجان على المائدة في هدوء ونهضت في الحال مسلّماً مودّعاً وانصرفت.

سرت في الطريق إلى منزلي أفكر. ولقد تمهلت في خطاي، إذ لم أجد في نفسي رغبة إلى الاحتباس بين جدران أربعة مع أكداس من الشكاوى المتأخرة أضع أنفي في تراب ملفاتها. وإن رأسي بعدُ لمشغول بغياب المأمور، أتراه قد وجدها؟.. أين ذهب بها إذن؟ والشيخ عصفور ماذا جرى له؟ العجيب في الأمر أن يستطيع هذا العصفور أن يختطف هذه الزنبقة ونحن عنه غافلون! الحقيقة أننا لم نفطن إليه، لقد استطاع أن يختطفها من يد المأمور لا من يدي أنا. ولكن الأعجب من هذا أن تطيعه الفتاة وتذهب معه راضية. فهو من غير شك لم يُكرهها ولم يحملها قوة واقتداراً، ما سر هذا التأثير وهذا النفوذ العجيب

وهو لا يكاد يعرفها ولم يكن بينهما لقاء طويل؟ أتراه قد أغراها بالهرب؟ ولكن ما الذي يدعوها إلى الهرب؟ أهي مجرمة؟ أهذا الجمال الرائع يجرم! أم نحن المجرمون إذ نظن السوء بالجمال؟ إن من العسير على نفسي أن أتصور الجمال غير مقترن بالفضيلة. الجمال الحق والفضيلة الحقة شيء واحد. ولكن المصاب قمر الدولة عندما سئل عن الضارب فاه بكلمة واحدة ما زال جرسها الباهت يرن في أذني: «ريم»! ولكن ما بال الفتاة صرخت وذهلت إذ علمت بالجناية أول مرة؟ أهو تصنُّع وتمثيل؟ لقد خلعت آهتُها قلبي خلعاً في تلك الليلة. وما أشك في أن المأمور، وهو على الأقل ذو خبرة بالقرويات، قد تأثر مثلما تأثرت. فإن كان مكر مثل هذه البنية الرقيقة يجوز على أمثالنا فأحرى بنا أن نوضع في مرابط البقر لا أن توضع أمامنا نفوس الناس نستطلع مجاهلها ونستكشف أسرارها. وألهتني هذه الخواطر وحملتني قدماي من دون قصد إلى المستشفى ومررت ببابه الكبير ووقعت عيني اللاهية على ذلك المنظر المعتاد من الأهالي والنساء والصبيان الجالسين القرفصاء فلم أحفل بهم. ولكني لم أكد أغادر هذا الجمع حتى وقفت دهشاً. فلقد لمحت تحت الجدار على بعد قصبة من الناس الشيخ عصفور جالساً إلى الأرض وهو مطرق ينكت التراب بطرف عوده وبجواره الفتاة وقد أسندت رأسها إلى الحائط تعباً وإعياء أو كآبة وحزناً. فهمت كل شيء. إنها جاءت المستشفى تسأل عن حال المريض. وإنها اتخذت من الشيخ الأخضر دليلاً وصاحباً ومعيناً، وكان ينبغي لذكائنا أن يتجه في بحثه إلى هذه الجهة القريبة. ولكن ما العمل الآن؟ إني بمفردي، ولا سلطة لي بغير رجال الحفظ أُلقي إليهم الأوامر. لابد إذن من الذهاب من فوري إلى دار المركز لأبعث أحد العساكر يأتي بهما. وأسرعت في السير قبل أن يعلما برؤيتي لهما فيهربا خوفاً مني وابتعدت عن المكان وأنا أقول في نفسي: لا شك أن الشيخ عصفور يعلم الآن كل أسرار القضية. أو أنه على الأقل قد اطلع على سر الفتاة وغاص بعينيه البراقتين

في بحار نفسها العميقة المظلمة. ولكن هل يفضي هذا الشيخ إلينا بشيء؟ إنه هو نفسه سر مغلق، ولست أدري أهو حقاً أبله أم خلف هذا الوجه الساذج...؟؟ وكنت قد بلغت المركز. ورأيت ببابه «البوكس فورد» فعلمت أن المأمور قد عاد، فأسرعت واقتحمت عليه حجرته فألقيته ملقى على «الكنبة» وقد خلع طربوشه وأمسك القُلة الفخار يجرع منها والعرق يتصبب من جبينه فلم يكد يراني حتى صاح:

– المسألة وحياتك فيها شغل سحر! لابد أن الشيخ الكلب سحر البنت. تصور أننا من الصبح لغاية ساعة تاريخه ما تركنا في دايرة المركز غيط ذرة ولا زراعة قصب ولا ساقية ولا طاحونة ولا كَفْر ولا دوَّار ولا ترعة ولا أرض ولا سما ولا طريق زراعي ولا جهنم حمرا إلا قلبناها وفتشناها شبر شبر. لو كانوا انقلبوا طير على الشجر أو سمك في البحر كنا وجدناهم. لكن المصيبة أنهم...

فما تمالكت أن قاطعته:

– المصيبة أنهم على بُعد خطوة من هنا يا حضرة المأمور!!

فوضع المأمور «القلة» على الأرض ونظر إليَّ فاغراً فاه:

– إيه؟

فقلت في شيء من الحدة:

– طير إيه وسمك إيه!! الرجل والبنت قدام باب المستشفى من ساعتها.

– المستشفى الأميري؟!

– قم يا شيخ قل لواحد عسكري يروح يناديهم من هناك، بلاش أمور...

ولم أتم بقية عبارتي، فقد نهض المأمور فرحاً قبل أن يسمع مني، وصاح بصوت جلجل في صحن المركز:

– يا شاويش عبد النبي!

فجاء من ناحية الاسطبلات رجل عملاق في قميص وسراويل بيضاء

ورفع يده بالسلام وقال:

– أفندم سعادة البك؟

– قم حالاً مع نفرين للمستشفى الأميري ومعكم قيد حديد.

فتردد الرجل وقال مقاطعاً:

– «أودة التبن» مفتوحة يا سعادة البك والأنفار جارين العليق والفرش للخيل..

فصاح فيه المأمور:

– يا حصان نفذ الأوامر إن شا الله عن الخيل ما باتوا في ليلتهم. قلت لك في الحال.

– حاضر يا فندم!

وتركت المأمور يفهم مرؤوسه ما يتبع. وانصرفت إلى مكتبي بعد أن أوصيت المأمور أن يلحق بي مع المقبوض عليهما. فأنا لا أحب مطلقاً التحقيق في دار المركز وهي ليست داري. فرَبُّ المركز هو المأمور. ولا أرضى لنفسي أن أكون في كنفه أثناء عملي. خصوصاً في هذه القضية وأمام هذه البنية. وذهبت على عَجَل وأرسلت من يستدعي كاتب التحقيق. ولم يمض قليل حتى كنت في حجرتي جالساً إلى مكتبي أطيل النظر إلى الباب نافذ الصبر منتظراً قدوم الفتاة كأنه موعد لقاء.

وسمعت نقراً على باب الحجرة. ودخل المأمور يسألني للفور عن المطلوبين فأجبت أني لم أرَ أحداً بعد. فجلس وهو يقول إنه أرسل مَن يأتي بهما. وجعل ينظر هو أيضاً إلى الباب ويفتل شاربيه. وجاء كاتبي بأوراقه ونشرها أمامي. واستعد كل منا. وإذا بجلبة ترتفع في الردهة وصوت أقدام ثقيلة وصلصلة حديد، وطرق الباب علينا، ثم فتح وألقى بيننا الشيخ عصفور وحده مكبل اليدين وخلفه الباشجويش يحمل له عوده الطويل فوقع في نفسي قلق. وشعرت بوقع مثله في نفس المأمور. فقد ابتدر الباشجاويش صائحاً:

– والبنت؟!

– وجدنا الرجل وحده فقبضنا عليه يا فندم.

– وحده؟!!

قالها المأمور كما قلتها أنا في نفس الوقت، وقد اختلط في نفسينا الأسف بالعجب والغضب. وخرج المأمور عن طوره فنهض وصرخ في وجه الشيخ عصفور قائلاً:

– البنت؟!

فلم يبد الرجل حراكاً. وأجاب في هدوء رصين:

– بنت مين!

فنظر إليه المأمور نظرة شرزاء وقال:

– أنت يا رجل شارب حشيش؟! شغل الحشيش أنا أفهمه. طيب!!

وأراد أن يلكمه بقبضته القوية فمنعته من ذلك، وأمرت الشيخ أن يدنوَ مني فدنا فسألته في رفق:

– ريم كانت معك!

فأجابني الرجل من غير تردد:

– أبداً.

فأدركت أن عين الرجل البراقة قد لمحتني عند مروري بباب المستشفى، وفهم بذكائه ما سيكون فأخفى الفتاة في الحال، وأن الأمر غير ذلك وأن عيني هي التي خانتني فلم تكن ريم إلى جانبه، وأن خيالي السابح في جو هذه الفتاة قد ألقى صورتها وأثوابها على امرأة أخرى من الفلاحات المنتظرات بالباب كل هذا جائز، ولكن أين ذهبت ريم؟ ولماذا أتهم بصري ولا أتهم هذا الشيخ المخاتل؟ ومن هو أولاً هذا الرجل؟ وصِحت فيه من فوري قائلاً:

– تعال يا رجل أنت!

– محسوبك.

– من أنت؟

فنظر إليَّ الرجل نظرة مَن لم يفهم السؤال. فألقيت عليه العبارة من جديد في شدة وقوة، فقال:

– أنا... أنا عصفور، ألقط الحب فوق التراب، وأعبد الرب تحت التراب!

– تكلم جد يا رجل. اسمك؟

– عصفور.

وأشار إلى يديه، وفيهما القيود وصاح:

– أطلقوني! مَن حب النبي يطلقني..

فأمرت العسكر بفك القيد من يديه، وسألته في صرامة:

– صنعتك؟

فتردد الشيخ قليلاً وسكت لحظة، ثم لفظ آهة من أعماق قلبه ورجع برأسه إلى الوراء وجمدت عيناه كأنهما تنظران إلى شيء لا وجود له في عالم الحس والحقيقة ورفع عقيرته بالغناء:

«أنا كنت صياد

وصيد السمك غِيَّه

نزلت بحر السمك

أصطاد لي بنّيَّه

وعجبني شكل السمك

في البحر حواليَّه

واحدة بياض شفتشي

والتانية بلطيَّة...».

فقاطعه المأمور صائحاً:

– مفهوم، مفهوم! واللي غرقت في الريَّاح من سنتين كانت البياض والاَّ

البُلطية؟!

فلم يجبه الشيخ ولم يلتفت إليه ومضى يغني:

«واحدة بياض شفتشي

والتانيــة بُلطيــة

والتالتة من بدعهــا

سحـرت مراكبيــه»

وتنهد في العبارة الأخيرة واتخذ صوته فيها نبرة عجيبة ذات معنى ارتجفت له قليلاً، ونظرت من طرف خفي إلى المأمور فرأيته قد اختلجت عيناه، ولكنه تجلد وتحامل وقال للرجل:

– ومن هم المراكبية؟!

فأطرق الرجل وصمت صمتاً عميقاً. ولست أدري أهو أيضاً خيال مني ما اعتراني من شعور بأن هذا الشيخ قد فهم.. وأنه قد أدرك ما بنا منذ اللحظة الأولى...

16 أكتوبر...

لم نستطع أن نعرف شيئاً من الشيخ عصفور، ولم نستطع كذلك أن نقبض عليه، فهو لم يرتكب أمراً يقع تحت نصوص القانون فأطلقناه، وخطر ببالنا أن ندفع في أثره أحد المخبرين عسى أن نستكشف مخبأ الفتاة.. ولكن أين هو المخبر السري الذي يخفَى على الشيخ عصفور؟ إنه يعرف كل رجال الحفظ معرفة أكيدة، وهو الذي قام معهم في الوقائع مئات المرات، وسهر معهم وأكل وشرب وغنَّى وأنشد، ودلهم على مخابئ الأسلحة. واقتفى معهم آثار المجرمين. إنه يكاد يحسب من أسرة «البوليس». تركناه ينصرف في سلام. وقد اكتفى المأمور الحانق بأن شيعه إلى الباب بصفعة على قفاه شفى بها غليله، وانصرف بعد ذلك كلٌّ منا إلى شأنه: المأمور إلى ناديه، وأنا إلى منزلي حيث خلعت ملابسي وخلوت إلى نفسي، وأخرجت كراسة يومياتي ألقي فيها هذا الكلام الذي لا أجد من أفضي به إليه في هذا الريف. إن القلم لَنعمة لأمثالنا ممن كتبت عليهم الوحدة، ولكن القلم كالجواد ينطلق أحياناً من تلقاء نفسه كالطائر المرح، وأحياناً يحزن ويثب على قدميه ويأبَى أن يتقدَّم كأن في

طريقه أفعى رافعة الرأس، وهو الساعة يهتز في يدي ويرقص ولا يطيعني كأن شيئاً يخيفه أو يقصيه عن مروج الأحلام، فنظرت إلى خزانة ملابسي الخشبية فإذا فأر أسود على رأسها واقفاً يقرض الخشب بأسنانه، فجعلت أنظر إليه علَّه يذهب، فلم يذهب، ومضت ساعة وهو مكانه وأنا في مكاني، كلانا له عمل من غير شك، وهو فيما يبدو لي لا يحفل بوجودي، ولكني أنا أحفل بوجوده. فزيارته في هذه الساعة شغلتني عن نفسي، وأخذت ألاحظه وهو يمسح رأسه وفمه بيديه الصغيرتين. وجلت أفكر في هذا المخلوق الذي لا يفكر فيَّ، وهنا كل الفرق بيني وبينه وتركت هذا النجار الصغير ذا المنشار الدقيق، وحملت كتابي إلى سريري وسدلت «الناموسية» عليَّ وأحكمت ربط أطرافها حتى آمن فضول هذا الزائر إذا حدثته نفسه بمداعبة قدمي العارية. ولم أجد فائدة من «المصايد» فإنها تكلفني عناء إعدادها وترقب نتيجتها. وليس أشق على النفس ولا أدعى إلى إضاعة الوقت من انتظار النتيجة، إذا كانت الفريسة حاضرة تحاورنا وتداورنا ولا تقع حتى تقع معها نفوسنا. وفوق ذلك فلَكَم قنصنا من الفيران، ومع ذلك لم تنقطع زيارتها، فلنتركها إذن تجيء وتروح، ولنحمّلها هذا الجميل، ولنحرص نحن على أنفسنا وحوائجنا. وأنا – ولله الحمد – ليس لي حوائج يخشى عليها، غير هذا الأثاث الرخيص من الخشب الأبيض قد حطمته كثرة التنقلات من بلد إلى بلد. فماذا يضيره أن تعبث به أسنان صغيرة؟ ونمت في تلك الليلة بعد العشاء بقليل فإن في اليوم التالي جلسة القاضي السريع، وقد كلفت مساعدي بحضورها على أن أحضرها معه إلى جواره كي أمرّنه على نظام الجلسات، وما يتبع فيها من إجراءات. وجاء الصباح وذهبت إلى المحكمة فوجدت مساعدي في غرفة المداولة متأبطاً مظروفاً به وسامه وهو في انتظار القاضي. ولم يلبث القاضي أن جاء في القطار القادم من القاهرة وخلفه شعبان الحاجب. وهما يشتدان في الخطى والقاضي يخرج من جيبه نقوداً يناولها للحاجب ويقول

له:

– اللحم يكون فلاحي من قشرة بيت اللوح! واصحَ للبيض يا شعبان أفندي، والزبدة والجبنة على عهدتك. أوضع الحاجة في السلال «كويس» وانتظرني بها على المحطة في قطر 11 كالمعتاد، اطلع أنت السوق والأفندي المحضر يقوم بدلك بالعمل!

وانصرف الحاجب سريعاً، ودخل علينا القاضي وسلم في عَجَلة قائلاً:

– أظن ندخل الجلسة.

وصفق بيديه:

– يا أفندي يا محضر! حضر الجلسة... الجلسة.

وألقى بمعطفه التيل الأبيض السفري على كرسي. وأخرج وسامه الأحمر من محفظته ولبسه في الحال. وأقبل الفراش بالقهوة فشربها القاضي وهو واقف في جرعتين وهجم على قاعة الجلسة، ونحن في أعقابه، وصاح المحضر:

– محكمة!!

ونظر القاضي في «الرول» وقال:

قضايا المخالفات. محمد عبد الرحيم الدنف، لم ينقّ دودة القطن.. غيابي خمسين قرش. تهامي السيد عنيبة... لم يقدم ابنه للتطعيم.. غيابي خمسين... محمود محمد قنديل، أحرز بندقية بدون رخصة.. غيابي خمسين والمصادرة. غيابي خمسين.. غيابي خمسين..

وانطلق القاضي في الأحكام كالسهم لا يوقفه شيء، والمحضر ينادي مرة واحدة حتى يلاحق القاضي، فمن لم يسمع النداء عُدَّ غائباً وحُكم عليه غيابياً. ومن سمع بالمصادفة فحضر يجري ابتدره القاضي:

– أنت يا رجل تركت غنمك ترعى في زراعة جارك؟.

– أصل الحكاية يا سعادة البك...

– ما عندناش وقت لسماع حكايات.. حضوري خمسين. غيره.

عبد الرحمن إبراهيم أبو أحمد... إلخ إلخ..

وانتهت المخالفات في مثل لمح البصر، وجاء دور قضايا الجنح وفيها سماع شهود ومرافعة محامين وهي تحتاج إلى شيء من الأناة. فأخرج القاضي ساعته ووضعها أمامه، وصاح في المحضر:

– بسرعة القضية الأولى...

فنادى المحضر:

– سالم عبد المجيد شقرف...

فنظر القاضي في الرول وعرف التهمة والتفت إلى المتهم وهو لم يجتز بعد عتبة باب الجلسة وصاح فيه:

– ضربت الحرمة؟ كلمة واحدة.. قل مِن عندك!

– يا سعادة البك فيه راجل يضرب حُرْمَة؟!!

– ممنوع الفلسفة. كلمة ورد غطاها. ضربت؟ نعم أو لا؟

– لأ.

فصاح القاضي في المحضر:

– نادِ الشاكية.

فحضرت الحرمة المضروبة تتعثر في «ملَسها» الأسود الطويل، فلم ينتظر القاضي حتى تدخل الجلسة، وصرخ فيها:

– ضربك؟

– أصل يا سيدي القاضي ربنا يخليك...

– مفيش أصل. ضرب والّا لأ؟ هي كلمة لا غير.

– ضرب.

– كفاية. واستغنت المحكمة عن بقية الشهود.. كلامك يا متهم.

فتنحنح المتهم وجعل يدافع عن نفسه والقاضي مشغول عن سماعه

بكتابة الحيثيات ومنطوق الحكم على الرول بالرصاص إلى أن فرغ فرفع رأسه ونطق بالحكم دون أن ينظر إلى المتهم أو ينتظر بقية دفاعه.

– شهر مع الشغل.

– يا سعادة القاضي أنا عندي شهادة. لا ضربت ولا بطحت. الحكم ظلم. ظلم يا ناس.

– اخرس! اسحبه يا عسكري!

فسحبه العسكري بعيداً. ونوديَت القضية التالية. فحضر رجل هَرِم مقوَّس الظهر أبيض اللحية يدب على عصا فابتدره القاضي:

– بددت القمح المحجوز عليه؟

– القمح قمحي يا سعادة القاضي وأكلته أنا والعيال.

– معترف. حضوري، حبس شهر مع الشغل.

– شهر! يا مسلمين! القمح قمحي. زراعتي... مالي...

فسحبه العسكري. وهو ينظر بعينين زائغتين إلى الحاضرين كأنما هو لا يصدّق أن الحكم الذي سمع حقيقي. إن أذنه لا شك قد خانته، وإن اليقين عند الناس الحاضرين. فهو لم يسرق قمح أحد، لقد جاءه المحضر حقيقة فحجز وعينه حارساً عليه حتى يسدد مال الحكومة، ولكن الجوع اشتد به وبعياله فأكل قمحه فمَن ذا الذي يعدّه سارقاً ويعاقبه عقاب السارق؟ إن هذا الشيخ لا يمكن أن يفهم هذا القانون الذي يسميه لصاً لأنه أكل زراعته، وثمرة غرسه. إن هذه الجرائم التي اخترعها القانون اختراعاً ليحمي بها مال الحكومة أو مال الدائنين ليس في نظر الفلاح جرائم طبيعية يحسها بغريزته الساذجة. إنه يعرف أن الضرب جريمة والقتل جريمة والسرقة جريمة. لأن في ذلك اعتداء ظاهراً على الغير، وأن الرذيلة الخلقية فيها بديهية جلية، ولكن التبديد... كيف يفهم أركانه وحدوده؟ إنما هو جريمة قانونية يظل يتحمل وزرها دون أن يؤمن بوجودها، وأسلم الشيخ أمره لخالقه. وتسلمه

الحراس وهو يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله». ونوديت القضية التالية، ولم يكد المحضر يلفظ اسم المتهم حتى كان القاضي قد وزن «الدوسيه» في يده فوجده ثقيلاً والشهود كثيرين، ونظر إلى ساعته ثم نظر إلى منصة المحامين فلم يجد مع هذا المتهم محامياً فعلمت أنه يريد أن يؤجل القضية ولم يخب ظني، فقد التفت إلى النيابة قائلاً:

– النيابة طالبة التأجيل؟

فنظر مساعدي إليَّ مرتبكاً، فأسرعت قائلاً:

– بالعكس، النيابة تعارض في التأجيل.

فأخفى القاضي امتعاضه وقال في شبه همس:

– ننظرها والسلام. هات الشهود...

غير أن القاضي ذكر أن هذه القضية إنما هي قضية «معارضة» في حكم غيابي سبق فيها. وينبغي أن تقدم المعارضة في خلال ثلاثة أيام. فقرأ في الحال التواريخ وصاح من فوره في المتهم متنفساً الصعداء:

– القضية مرفوضة شكلاً يا حضرة المتهم لأن المعارضة تقدمت بعد الميعاد.

فلم يفهم الفلاح ذو «العِرى» هذا الكلام. وقال:

– والعمل إيه يا حضرة القاضي؟

– العمل أن الحكم السابق بحبسك ينفذ عليك. احجزه يا عسكري.

– الحبس بالزور يا حضرة القاضي؟ أنا مظلوم. لا قاضي سمع كلامي ولا حاكم طلب سؤالي لحد الساعة!

– اخرس! معارضتك يا رجل بعد الميعاد؟!

– وماله؟

– القانون يا رجل أنت محدد ثلاثة أيام.

– أنا يا سيدي القاضي غلبان لا أعرف أقرا ولا أكتب. ومن يفهمني

القانون ويقرّيني المواعيد؟

– يظهر أني طوَّلت بالي عليك أكثر من اللازم. أنت يا بهيم مفروض فيك العلم بالقانون. احجزه يا عسكري!

ووضع الرجل بين المحجوزين وهو يلتفت يمنة ويسرة إلى من حواليه ليرى أهو وحده الذي لم يفهم؟!

وجعلتُ أتأمل لحظة سحنةّ هذا المخلوق الذي يفترضون فيه العلم بقانون «نابليون»!!

وانتهت الجلسة آخر الأمر. ووثب القاضي ناهضاً وعاد إلى حجرة المداولة، وخلع وسامه على عَجَل، فإن قطار العودة لم يبق على قيامه غير سبع دقائق. ولكن القاضي تعوَّد الركوب في آخر لحظة، فهو في إسراعه لم يفقد ثباته الداخلي ولا اطمئنانه، وتناول معطفه الأبيض ووضعه على ذراعه وسلم علينا وانصرف إلى المحطة في شبه ركض، وإذا كاتب النيابة يدخل مسرعاً ببعض الملفات وخلفه عسكري يسحب مسجوناً والكاتب يصيح:

– القاضي مشى؟ عندنا معارضة في أمر حبس معروضة على حضرة القاضي.

فقلت له في الحال:

– الحق القاضي على المحطة قبل ما يركب.

فصاح الكاتب في العسكري:

– هات المسجون يا شاويش واطلع على المحطة.

وهرول الجميع: الكاتب والجاويش والمسجون في ذيل حارسه مربوطاً في السلسلة كأنه كلب. وجرُوا كلهم خلف القاضي الراكض. هذا منظر مألوف لأهل البلد في يوم هذه الجلسة. فإن المعارضات المتأخرة والتجديد لأوامر الحبس تنظر وتمضى في «بوفيه» المحطة قبل قيام القطار بدقيقتين، ويتحرك القطار وقدَم القاضي ما زالت على الرصيف والأخرى في العربة

الأخيرة وهو يقول:

– رفض المعارضة واستمرار حبس المتهم.

فيدوّن الكاتب منطوق هذا الحكم فوق «رخامة» مائدة البوفيه بينما يتسلم القاضي من شعبان الراكض خلف القطار المتحرك «سلالي» البيض والزبد واللحم، والحاجب يصيح بأعلى صوته:

– اللحم يا بك من بيت اللوح وبيت الكلاوي!

وصعدت بعد الجلسة إلى مكتبي أنا ومساعدي وقد بدا الوجوم على وجه المساعد، فقد كان يحسب أن النيابة ستقوم في كل قضية تشرح وجهة نظرها في الاتهام. ولقد كان أعدَّ لذلك مرافعات طويلة مكتوبة بخط واضح جميل على «أفرخ فولسكاب» مسطَّرة، فإذا هو يخرج بها من الجلسة مطوية كما دخل بها، وإذا الأحكام قد انطلقت انطلاق القطار في بساطة وسرعة، والعدالة قد جرت مجراها في طرفة عين كأنها جواد السباق من دون حاجة إلى هذا التحليل والشرح والاستشهاد والاستدلال الذي سهر لياليه ليحشو به هذه الأوراق.

وخلوت أخيراً في مكتبي. ودخل عليّ رئيس القلم الجنائي ببريد النيابة. وفتح مظاريفه أمامي كالمعتاد في كل صباح، وما كدنا نفض غلافاً أو غلافين حتى سمعنا ضجيجاً خارج الحجرة وصوتاً مدوّياً عرفت فيه صوت الشيخ عصفور، فبعثت من يسأله عن خبره، فقيل لي: إن المركز أرسله اليوم مقبوضاً عليه بعد أن حرر له محضر تشرد. فأدركت أن المأمور مازال يعتقد أن هذا الشيخ هو الذي خطف البنت. وأن حقده عليه ما زال متأججاً وأنه لجأ إلى وسائل الإدارة ليوقع به. إن فكرة اتهام الشيخ عصفور بالتشرد فكرة نيرة لا يمكن أن تخطر إلا بذهن المأمور المغيظ. والحقيقة أن هذا الشيخ متشرد لا أكثر ولا أقل. وهو من هذه الناحية يصلح فريسة لنصوص القانون التي بين أيدينا. ولكن العجيب أن يسكت عنه المركز كل تلك الأعوام التي

مضت ولا يفطن إلى أمر صناعته إلا الساعة.. إن هذه الوسيلة لم تعجبني كثيراً ولم ترضِ ضميري القضائي، فإن نصوص القانون لا ينبغي أن تكون أسلحة في أيدينا نضرب بها على مَن نريد ضربه في الوقت الذي نختاره. إن القبض على الشيخ عصفور اليوم هو من غير شك مسألة انتقامية. إن المأمور وقد رأى هذا الرجل يفلت من تهمة خطف الفتاة دبر وفكر في طريق آخر لا يستطيع منه الإفلات. هذا أسلوب الإدارة الذي لا يحسن أن يسلكه رجال القضاء، وعزمت في نفسي أن أفرج عن الرجل، ولكني أرجأت النظر في أمره حتى أفرغ من «توريد البوستة» التي أمامي. فلقد قدم لي عبد المقصود أفندي مظروفاً أصفر ضخماً علمت أن فيه «قضايا جنايات» مرسلة إلينا من الرياسة لدرسها والمرافعة فيها أمام محكمة الجنايات المنعقدة في هذا الشهر في عاصمة المديرية التي نعمل في دائرتها. فألقيت نظرة على هذه القضايا فوجدتها تحوي مئات الصفحات. وهل لي رأس يتسع الآن لكل هذا؟ لا شيء ينفرني من عمل النيابة غير المرافعة في قضايا الجنايات. فإن من العسير على ذاكرتي الضعيفة أن تحيط بكل تلك التفاصيل التي تتكون منها الجريمة كي تبسطها بعد ذلك في نظام وترتيب وهدوء أمام مستشارين ثلاثة عابسين ومحامين متربصين، وجمهور يشاهد ويحكم لا على لب الموضوع، بل على مدى إتقان الحركات والإشارات، ورنين الصوت في القاعة، ومهارة الإلقاء، والضرب باليد فوق المنصة. إني بطبعي لا أصلح إلا لملاحظة الناس خِفية يتحركون فوق مسرح الحياة، لا أن يشاهدني الناس ممثلاً بارعاً قد سلطت على وجهه الأضواء، إن هذه المواقف تعمي بصري، وتُذهب لبي، وتطير ما في ذاكرتي، وتفقدني ذلك الهدوء النفسي الذي أرى به أعماق الأشياء، لذلك ما ترددت وأمرت بإحالة هذه القضايا على المساعد، فهو ما زال في تلك السن التي يبهر فيها الإنسان ويعجب بهذه المواقف والمظاهر، وقد يكون له من حسن الاستعداد لهذا العمل ما يجب عليَّ أن أوجهه إليه. وإني فوق ذلك

أتيح له فرصة الإقامة أياماً في عاصمة المديرية حيث يجد في ملاهيها ومشاربها ما يرفه عنه. ويلطف من أثر الوحدة والضيق في هذا الريف الصامت. وأعجبتني هذه الحجج ورأيتها كافية لإقناعي بوجوب إزاحة هذه القضايا الثقيلة عن كاهلي. وناولني رئيس القلم الجنائي بعد ذلك مظروفاً آخر صغيراً قرأت عليه بالحبر الأحمر كلمة «سرّي» فقلت في نفسي: «تلك ملحوظة من النائب العام». فأسرعت بفضه فإذا هو بلاغ من مجهول أرسِل إلى النائب العمومي رأساً في القاهرة فأحاله عليَّ لإجراء اللازم فيه فنشرته في يدي وقرأته بإمعان، ولم آت على آخره حتى كان قد استولى عليّ العجب، وأطرقت لحظة أفكر، ثم أعدت النظر فيه وتمهلت في قراءة سطوره هذه:

«سعادة النائب العمومي بمصر دام

نعرفكم بأن الحرمة زوجة قمر الدولة علوان المضروب الموجود «بالاستبالية الميري» كانت ماتت من سنتين مخنوقة وتسَتَّر عليها حلاق الصحة من أجل الرشوة وأجرى دفنها بدون علم الحكومة واسألوا زوجها علوان وأختها البنت ريم عن الذي خنقها. وأسباب الجريمة معلومة ولا تخفى على فطنتكم إذا كلفتم خاطركم بالتحقيق بنفسكم وإنكم تكشفون أسراراً خطيرة وتضربون على أيدي الأشرار. «وتوضعون» العدل في مجراه. والعدل أساس الملك. وقد قال الله عز وجل في كتابه العزيز: (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) صدق الله العظيم».

«فاعل خير»

17 أكتوبر..

فكرت ملّياً في أمر ذلك الخطاب، مَن ترى يكون مرسله المجهول؟ الأسلوب ينم عن أن صاحبه أزهري فسد. هذه الآية القرآنية وهذا التوزيع لا يصدران إلا عن هذا الصنف الذي يستغل علمه القليل وجهل الناس المطبق في الريف، فيعيش على تحرير البلاغات المأجورة وبذر الشقاق بين الأسر والأفراد. ولكن في هذا الخطاب على أيّ حال وقائع تستدعي التحقيق. ولو صح ما جاء فيه من أن زوجة قمر الدولة قتلت خنقاً لخرجنا من الأمر بجناية تمخضت عن جناية لايهمنا الآن البحث عن صاحب الخطاب بقدر مايهمنا التأكيد من صحة الاتهام. لابد إذن من فتح المقبرة واستخراج جثة زوجة المصاب وعرضها على الطبيب الشرعي. وقد اتجه تفكيري كله هذا الاتجاه فلم أشغل ذهني بما ورد عن ريم في هذا البلاغ وما يمكن أن يلحقها من شر. ذلك أن كل شيء مترتب على نتيجة فحص الجثة. وكنت قد بادرت فأخطرت الطبيب الشرعي ببرقية، وقمت بما يلزم من إجراءات لفتح المقبرة، فعينت

عليها الحراس يسهرون الليل بجوارها حتى لا يعبث بها عابث. وأرسلت في طلب «اللحَّاد» وكنت قد اتصلت تليفونياً بالمركز عقب قراءتي ذلك الخطاب لأخطر المأمور، فقيل لي إن المأمور ركب ومضى إلى اجتماع خطير معقود في المديرية برياسة المدير، وحضر إليَّ للفور المعاون يقول:

– سعادتك اطلعت طبعاً على جرائد المساء؟

– أبداً.

– في البلد أزمة وزارية.

فأدركت في الحال سر اجتماع المديرية، وعلمت أن رجال الإدارة منذ الساعة لن يكون لهم عقل ولا فكر في غير تنسَّم هوى الوزارة الجديدة، حتى يعدوًّا أنفسهم للميل معها كما مالّوا مع غيرها. وهذا الميل يبدو أكثر ما يبدو في التجهم السريع للعُمَد والأعيان الموالين للوزارة الآفلة، والابتسام الوديع لأنصار الوزارة المقبلة. ولم أبد أيَّة ملاحظة للمعاون فأنا رجل قضاء لا ينبغي لي الكلام في السياسة، ومهما تغيرت الوزارات والأحزاب فإن القانون هو القانون. والتفت إليه أخيراً وقلت في هدوء:

– أظن حضرتك تقوم معنا بدل المأمور.

– الظروف الحاضرة تمنعني من ترك المركز. لكن ملاحظ النقطة موجود هنا في خدمة سعادتك.

فتركته ينصرف إلى مركزه، وأمرت بإعداد السيارة، وجلست أنتظر الطبيب الشرعي وقد أجاب على برقيتنا بإشارة تليفونية أنه حاضر اليوم. ودخل عليَّ عبد المقصود أفندي وأشار بيده إلى «النتيجة» المعلقة بالحائط، وذكرني بضرورة تفتيش سجن المركز، فالنيابة عليها أن تقوم بهذا التفتيش فجأة مرتين في كل شهر على الأقل فلم ألتفت إليه وأمرته أن يذكرني فيما بعد، فمشى خطوتين ثم عاد وغمز بعينه:

– فيه إشاعة أن الوزارة الجديدة تألفت وناوية تجري انتخابات جديدة.

– وماله؟

– غرضي يعني.. قبل سجن المركز ما يزدحم..

فلم أنبس بكلمة وتشاغلت بتقليب أوراق القضية التي نقوم من أجلها، ورأى رئيس القلم الجنائي أني لن أجيب فانصرف متردداً متباطئاً. وأدركت من هيئته أنه لم يأت من تلقاء نفسه، فناديته فرجع، فقلت له في ابتسامة التخابث:

– كاتب ضبط المركز كلمك في التليفون؟

فأجاب للفور:

– طبعاً ودفاتر السجن مسَّددة جاهزة..ومحضر التفتيش مكتوب. وكل شيء تمام، ولا باقي غير إمضاء سعادتك.. والحكاية كلها قيمة ربع ساعة ونكون انتهينا من مأمورية تفتيش السجن.

فنظرت إليه شزراً:

– شيء جميل! تفتيش فجائي مضبوط يا عبد المقصود أفندي..؟

فارتبك الرجل قليلاً ثم قال:

– أنا غرضي راحة سعادتك من جهة، وعدم إحراج المركز في الظروف الحاضرة من جهة أخرى..

– طيب. طيب..

وأسرعت فأقفلت باب الموضوع. فقد سمعت نقراً على باب حجرتي، وأبصرت من خلفه الطبيب الشرعي بحقيبته الصغيرة يستأذن في الدخول. فنهضت في الحال واتجهت إليه وأدخلته مرحَّباً. وطلبت له فنجاناً من القهوة. ثم تجاذبنا الحديث في الأحوال العامة، فأخبرني باختصار ما سبق أن علمته من عبد المقصود أفندي من أن الوزارة الجديدة قد تسلمت فعلاً مقاليد الأمر، وأنها تعد العدة لانتخابات جديدة. ولم نعلق على هذه الأخبار بشيء فكلانا يجهل ميول الآخر. كلانا يخشى أن يظهر رأيه الدفين. وبدأنا لوقتنا الكلام

في العمل وفي القضية التي بين أيدينا، وأخبرت الطبيب بظروفها في عبارات سريعة. واستقر الرأي على المبادرة بالانتقال إلى المقبرة. فقمنا إلى السيارة وانطلقنا ولم نقف حتى بلغنا مكاناً قصياً في المزارع قد تجمعت فيه تحت ظل نخلتين أو ثلاث بضع مقابر من الطين والآجر قد علتها «شواهد» طويلة سمراء كأنها رؤوس العفاريت فنزلنا. وهرع لاستقبالنا الحراس. هبطوا فجأة من مراقدهم لمرآنا وخرجوا علينا، بعضهم يهبط من أعالي «مرتبة» قد وضعت فوق المقبرة كما يوضع الهودج فوق الناقة، وبعضهم يثب من على حصير فرش بين يدي هذه المقبرة كأنهم قردة تشب من حجر أمها، وسألت عن حضرة ملاحظ النقطة فأشاروا إلى الطريق الزراعي فرأيت فتًّى في ملابسه العسكرية يقبل متبختراً على حصانه الأشهب. ولم تمض لحظة حتى بدأنا العمل، فأمرنا اللحَّاد بفتح المقبرة فأعمل في الحال فأسه ومِعَوله في البناء الذي يخفي المدخل. وسألني الطبيب الشرعي عمَّا إذا كنا استدعينا أحداً من أهل المتوفاة يستطيع أن يتعرف على الجثة وكَفنها، فأجبته إنا لا نعرف للمتوفاة غير أخت قد هربت واختفت. فاقترح إيفاد الملاحظ إلى القرية يحضر لنا امرأة من الجيران ممن حضروا غسلها أو دفنها. فقام الملاحظ للفور لما انتدب له. وأمعن اللحاد في الدق والهدم حتى جرح صدر المقبرة جرحاً بالغاً وقام عنها وهو يقول:

– الباب من غير مؤاخذة من ورا..

وتناول أدواته وذهب إلى الناحية الأخرى وجعل يوسعها ضرباً وطرقاً. فصاح به الطبيب الشرعي:

– هي دي يارجل انت مقبرة توت عنخ آمون؟ تغلط في المدخل وأنت لحَّاد الناحية!

أصل ياحضرة الدكتور مضى عليها زمن مقفلة.

وضرب ضربتين انفتح تحتهما المدخل. وزحف الرجل على يديه وقدميه

إلى داخل المقبرة وخرج يجذب شيئاً ملفوفاً في «قماش» لا لون له من القِدَم تكاد أطرافه تتفتت في أصابعه، ووضعه تحت أنظارنا وهو يقول:

– شوفوا هي دي «بلا قافية» الحُرمَة؟

فكشف الطبيب الشرعي عن تلك العظام النخرة ونظر فيها ثم قال للحاد:

– ارجع بها ياحمار. دي جثة رجل.

– راجل؟!

واختفى اللحاد بالجثة في قلب المقبرة وعاد فظهر بجثة أخرى ما كاد يفحصها الطبيب حتى وجدها هي كذلك جثة رجل. وهكذا ظل يعرض علينا الجثث التي وقعت عليها يده فإذا كلها لرجال. فصاح اللحاد مغيظاً:

– أمال النسوان راحت فين يارجاله؟

فقال له الطبيب في هدوء:

– حضرتك بالاختصار غلطت في المقبرة.

ثم نظر إلى المقبرة التي بجوارها وقال:

– افتح دي.

فذهب اللحاد بأدواته حيث أشار إليه الطبيب بينما أنزل الحراس «متاعهم» من فوق المقبرة الأولى وهم يتهامسون!

– بقى كنا راكبين غلط!

وفتحت المقبرة الثانية. وما كاد اللحاد يزحف إليها ويختفي فيها حتى ظهر الملاحظ عائداً وخلفه امرأة تخفي وجهها بطرف طرحتها السوداء وترفع عقيرتها مُوَلوِلَة:

– ياللي كنِت منورة الحارة! فسد الملاحظ فمها في الحال منتهراً.

– اخرسي ياوليَّة!

واقترب الطبيب الشرعي من المرأة وحادثها فعلم منها أنها كانت جارة للمتوفاة وأنها حضرت جهازها.

– اسمعي ياستي. الميِّتة كفنوها قدامك؟

فتنهدت المرأة وقالت:

– قدامي ياسيدي، وبقيت بعيد عنك ألطم وارقع بالصوت.

– المهم عندنا مش اللطم، كفنوها في كم «درج»؟

– في عين العدو تلات «أدراج»: درج مرمر ودرج كزمير ودرج حرير أخضر..

وخرج اللحاد وقتئذ يجذب من داخل المقبرة جثة فحص الطبيب كفنها وقد ذهب لونه بفعل الزمن إلا بقية اخضرار خفيف في أطرافه ينم عن حقيقة لونه الغابر. فأمر من الفور بحمل الجثة ووضعها على «لوحين» من الخشب نُصبَا سريعاً على هيئة مشرحة تحت ظلال شجرة من السنط، وطلب إبعاد الحاضرين فرفع الملاحظ عصاه الخيزران الرفيعة في يده وفرَّق الناس صائحاً:

– بعيد. بعيد..

وكشف الطبيب الكفن في احتياط. وما كاد ذلك الهيكل العَظمي المسجّي يظهر للعيان حتى سمعت خلفي همساً وهمهمة، فاستدرت فأبصرت سائق السيارة مختفياً خلف جذع الشجرة شاحب الوجه بارز العينين يشاهد هذا المنظر ولا يملك نفسه:

– لا حول ولا قوة إلا بالله! إنا لله وإنا إليه راجعون!

ولمحه الطبيب فانتهره وأمره بالابتعاد. وصِحت أنا كذلك في السائق صيحة انصرف بعدها إلى سيارته وقبع فيها. غير أني تأملت قليلاً أمر هذا السائق.. ما الذي روّعه؟ أهو منظر العظام في ذاتها، أم فكرة الموت الممثلة فيها، أم المصير الآدمي وقد رآه أمامه رأي العين؟ ولماذا لم يعد منظر الجثث أو العظام يؤثر في مثلي وفي مثل الطبيب، وحتى في مثل اللحاد أو الحراس هذا التأثير؟ يخيل إليَّ أن هذه الجثث والعظام قد فقدت لدينا ما فيها من

رموز. فهي لاتعدو في نظرنا قطع الأخشاب وعيدان الحطب وقوالب الطين والآجر. إنها أشياء تتداولها أيدينا في عملنا اليومي. لقد انفصل عنها ذلك «الرمز» الذي هو كل قوتها. نعم. وماذا يبقى من كل تلك الأشياء العظيمة المقدسة التي لها في حياتنا البشرية كل الخطر لو نزعنا عنها ذلك «الرمز» أيبقى منها أمام أبصارنا اللاهية غير المكترثة غير جسم مادي حجر أو عظم لا يساوي شيئاً ولا يعني شيئاً. ما مصير البشرية وما قيمتها لو ذهب عنها «الرمز».. «الرمز» هو ذاته كائن لا وجود له. هو لاشيء. وهو مع ذلك كل شيء في حياتنا الآدمية. هذا «اللا شيء» الذي نشيد عليه حياتنا هو كل ما نملك من سمو نختال به ونمتاز على غيرنا من المخلوقات. هنا كل الفرق بين الحيوانات العليا والحيوانات الدنيا.

وقطع الطبيب سلسلة تفكيري بمقص طبي في يده ذات القفاز الجلدي الشفاف يفحص به العظام قائلاً:

– امرأة من غير شك.

ومضى في عمله وهو يقول:

– الضلاع سليمة والجمجمة: الطاسة سليمة، والعظم اللامي.. وهنا نظرت إليه في انتباه. فالعظم اللامي في العنق هو الدليل الناطق على حدوث الجريمة. فإن كسره معناه أن الخنق قد وقع. وإن كل ما يهمنا في الحقيقة من استخراج الجثة والكشف عنها هو فحص العظم اللامي والتحقق من سلامته. ولم يمهلني الطبيب حتى أسأله وصاح وهو يريني هذا العظم بين أصابعه:

– مكسور

هذه الكلمة كانت كافية لتحديد موقفي من الأمر. إن ما جاء في البلاغ المجهول المصدر حقيقي إذن. وماذا أنتظر وصِحت في الطبيب:

– انتهينا.

وعزمت على العودة مسرعاً للبدء في تدبير ما ينبغي للوصول إلى معرفة

سر هذه القضية الجديدة، فهي من دون ريب مفتاح الأولى. وفرغ الطبيب الشرعي من أمر الجثة وأعادها اللحاد أمامنا إلى مقرها وسد عليها كما كانت. وأنا صامت في مكاني أفكر فيمن يكون الخانق لهذه المرأة. أهو زوجها المصاب؟ وما الذي حمله على ذلك؟ وأختها ريم ما شأنها في الأمر؟ أتراها تعلم بهذه الجريمة؟ وأين ريم الآن؟ إن وجودها اليوم في التحقيق ذو أهمية كبرى. ولكن كيف نعثر عليها؟ إن الشيخ عصفور يعلم مقرها، أو على الأقل يستطيع أن يعاوننا في البحث عنها. إذن فلنجعل الشيخ عصفور مبدأ لخط السير الجديد. فلأقنعه أنا إذن بوسائلي بعيداً عن طرق الإدارة العنيفة. إن مثله قد يؤخذ بالحيلة والهدوء. ترى لو أفهمته مثلاً أن في إمكاني أن أزوجها منه.. وأعجبتني الفكرة وعزمت على تنفيذها. وركبنا السيارة عائدين. ومررنا في طريقنا بالقرية. فإذا أصوات حزن وولولة نساء ترتفع من «دوار» العُمدة فقلت وأنا أوقف السائق بإشارة:

– العمدة مات؟

وأطللت من نافذة السيارة، فإذا أمام منظر لم أفهمه أول الأمر. ورأيت شيخ الخفر ووكيله وبعض الخفراء يحملون شيئاً في أيديهم، ومن حولهم جموع الرجال والنساء والصبيان يهللون ويكبرون والنساء يزغردن كما يفعلن في الأفراح وفي أيديهن الدفوف يضربن عليها. وتأملت جيداً ما يحملونه وتأمل معي الطبيب الشرعي دهشاً فرأينا آلة تليفون حكومية من طراز تليفونات المراكز. فصاح الطبيب في عجب:

– التليفون له زفة كأنها زفة عروسة.

ومر بقربنا خفير نظامي فأشرت إليه فاقترب وسألته عن الخبر فأجابني أنه قد صدر اليوم أمر برفت العمدة الحالي وتعيين آخر مكانه من الأسرة المنافسة في القرية. ففهمنا كل شيء، ومال عليّ الطبيب يقول ضاحكاً:

– يظهر إن تليفون الحكومة عند العمدة في مقام الصولجان.

هذا صحيح فيما أرى. إنه مظهر السلطة والحكم وأداة الاتصال بالحكومة، وأن خلعه من دار «العمدة» «المخلوع» إنما هو «رمز» زوال السلطة، وأن هذا العويل المرتفع من «دوار» العمدة القديم، وهذا البكاء الذي يشيع به التليفون الخارج من بيته لدليل على فداحة المصيبة، وهذه المصيبة ككل مصيبة لها وجهها الآخر الباسم يطل على ناحية أخرى، وإن دار العمدة الجديد الذي يستقبل التليفون الداخل عليه بالزعاريد والدفوف لدليل أيضاً على مبلغ السعادة والهناء. هنا «الرمز» كذلك في شكل «تليفون» من الصلب والخشب قد لعب دوراً مهماً على مسرح هذه القرية الوادعة.

وانطلقت بنا السيارة والطبيب صامت في بعض الطريق. وأخيراً التفت إليَّ وقال:

– يظهر أن العمدة الجديد من محاسيب الوزارة الجديدة.

فقلت له:

– إن هذه القرية، ككل قرية اليوم في مصر بها عائلتان قويتان أو أكثر تتنافس في العُمُدية، وكل منها ينتمي إلى حزب من الأحزاب التي تتنازع الحكم، ولماذا تريد أن يكون الحال في القرية غيره في الدولة؟ وهل القرية إلا مصغر الدولة؟

18 أكتوبر..

كان أول ما فعلت عقب رجوعي إلى مكتبي أن أرسلت في طلب الشيخ عصفور، فحضر أمامي مطرقاً صامتاً فابتدرته:

– البنت ريم تعجبك؟

فرفع رأسه ونظر إليَّ نظرة أحسست أنها نفذت إلى أعماق نفسي، ثم عاد فأطرق ولم يجب.

فقلت له:

– أنا مستعد أطلب المأذون وأعقد عليك وعليها حالاً.

فلم يبد حراكاً، فمضيت أقول:

– لو كانت موجودة هنا كنت حالاً..

وجعلت أستحثه على الكلام فلم يخرج عن صمته. وأخيراً ترنم بصوت كالهمس لكنه واضح النبرات:

نهيتك مــا انتهيت

والطبـع فيك غالب

وديل الكلب ما ينعدل

ولو علقوا فيه قالب

فما تمالكت أن صحت:

– اخرس يا بهيم!

وأسرعت بطرده، وقد تبين لي أن لا فائدة ترجى من مثله. ورأيت أن أسأل حلاق الصحة، فاستدعيته وسألته في أمر المرأة المخنوقة وكيف صرح بدفنها بدون إذن النيابة، فقال من فوره:

– وشرفك يا سيدنا البك ما أعرف إن كانت مخنوقة أو محروقة، حضرة حكيم الصحة أمر بالدفن كالمعتاد.

– بدون توقيع كشف؟

– لو كنا نقعد نكشف يا سعادة البك على كل متوفى كان زماننا توفينا من بدري.

– بقى بالاختصار لا حد كشف ولا نظر..

– الجاري عليه ياسعادة البك أن حلاقين الصحة في الجهات تبلغ الدكتور المفتش بالتليفون، وحضرته قاعد على مكتبه هنا ما عليه إلا أنه يسأل في كل حالة عن سبب الوفاة نرد عليه في التليفون: ماتت يا دكتور موتة ربها، يقوم يقول: ادفن، ادفن، ادفن..

– ماشاء **الله**، ماشاء **الله**، ما شاء **الله**!

ولم أرَ فائدة كذلك من البحث مع هذا الحلاق فأنا أدرَى الناس بحلاقي الصحة. إن كل مهمتهم أن يقبضوا من أهل المتوفى خمسة قروش ويحصلوا لهم على الإذن بالدفن دون أن ينظروا في وجه جثة أو ينتقلوا إلى منزل متوفى. إن هم إلا سماسرة «دفن»، حتى مع فرض وجود النزيه منهم الذي يريد القيام بواجبه فيذهب للكشف على الجثة، ماذا يستطيع هذا الجاهل أن يستكشف؟ إنه سَيرى رجلاً أو امرأة قد فاضت روحها وليس بها إصابات

ظاهرة. فكيف يعرف أن الوفاة مشتبه في أمرها؟! إن «نظام» حلاق الصحة نفسه، هذا النظام الذي لا تعرفه أية دولة على بسيط الأرض هو موطن الداء. ومثله عندنا نظام «الدايات» وإني مازلت أذكر ما قصه عليَّ طبيب مستشفى المركز ذات يوم. قال لي: إنه دُعي إلى حالة ولادة عسرة في إحدى جهات الريف، فذهب مسرعا فوجد المريضة ملقاة على ظهرها وقد تدلت منها ذراع الجنين وبجوارها عجوز حمراء الشعر والشدقين، قيل له إنها «ست هندية الداية» وأخبروه أن المريضة قد مضى عليها ثلاثة أيام على هذه الحال بهذه الذراع الخارجة منها. فسأل الداية: لماذا انتظرت كل هذا الوقت ولم تخطري الطبيب؟ فأجابت: «كنا منتظرين ستر ربنا، قلنا المولى ينتعها بالسلامة». ووضع الطبيب يده في الرحم فإذا الرحِم محشو بالتبن، وإذا مثانة المريضة قد تهتكت وأنها هالكة لا أمل فيها، وأن المولود قد مات منذ يومين. وألقى نظرة حوله فإذا كومة من «التبن» القذر عند أقدام المرأة. فالتفت إلى «ست هندية الداية الصحية» مستفهماً، فقالت: أصل ياسيدي الدكتور لما دخلت يدي أسحب الولد لقيتها راحت «مزفلطة» قمت قلت «أحرش كفي بشوية تبن». ومدت للطبيب يداً ملوثة «بالتبن» قد بدت منها أظافر طويلة سوداء. وقال لي الطبيب: «إن الداية تولِّد المرأة كما لو كانت جاموسة». وماتت المريضة مع طفلها واكتفت الصحة بأن سحبت من هذه الداية «الصحية» التصريح. ولكنها لم تغير النظام وهي تعلم أن ألوف الأطفال يموتون على هذه الصورة كل عام..

نظرت إلى حلاق الصحة مليَّاً وأدركت أن أرواح الناس في مصر لا قيمة لها. لأن الذين عليهم أن يفكروا في هذه الأرواح لا يفكرون فيها إلا قليلاً. وطردت هذا الرجل أيضاً، وقلت في نفسي: إن خير السبل في مثل هذه القضية أن أعرف مرسل البلاغ المجهول، وفكرت لحظة، وخطر لي أن أعرض خطه على القاضي الشرعي وهو يتحرى لي بين موظفي محكمته وبين المحامين

الشرعيين. ولعله هو نفسه قد مر به هذا الخط. ومادمت أعتقد أن صاحب الخطاب أزهري فليكن البحث في دائرة المحكمة الشرعية، وطلبت في الحال عبد المقصود أفندي رئيس القلم الجنائي وهو من أصدقاء القاضي الشرعي وكلفته أن يرافقني في الحالِ، ولم يمض قليل حتى كنا في بناء تلك المحكمة، فسألنا عن القاضي فدلونا على حجرة أمام بابها «قبقاب»، فهمس عبد المقصود أفندي في أذني أن فضيلته لا شك كان يتوضأ كي يصلي الظهر. وسرد لي في عبارتين مبلغ ورع هذا القاضي وزهده، وضربنا على الباب ودخلنا. فرأينا القاضي خالعاً جبته وعمامته وهو جالس على حصير الصلاة، فلما رآنا نهض وحيانا وأجلسَنا على الكراسي وطلب لنا «زنجبيل» ورأى عبد المقصود أفندي أن يوفر عليَّ مئونة بدء الحديث، فالتفت إلى القاضي الشرعي وقال:

– البك وكيل النيابة غرضه يطلب من فضيلتك..

فأجاب القاضي سريعاً في شيء من القلق:

– خير إن شاء الله. طلب خصوصي أو..

وذكرتني هيئته وقلقه بقصة عنه قصها عليَّ المأمور قال لي يوماً: إن المدير اقترح تحسيناً لمظهر المركز ومراعاة للصحة العامة إنشاء منتزه في وسط البلد، وقد تبرع بعض الأعيان بما استطاعوا التبرع به من مالهم، وبلغ القاضي الشرعي ذلك، فذهب إلى المأمور وسفَّه له هذا المشروع واقترح أن يقام بدل المنتزه مسجد لعبادة الله وحض الناس على التقوى والصلاح، فأمن المأمور الخبيث على كلام القاضي وتحمس لرَأيه أعظم التحمس، وقال له:

– لابد من عرض اقتراح المسجد على سعادة المدير، وأنا متأكد أنه موافق مقدماً، وزيادة في إدخال السرور على قلب سعادته نكتب اسم فضيلتك في رأس قائمة التبرعات، باعتبار أنك متبرع بمبلغ خمسة جنيهات وأخبرني

المأمور أن القاضي وكأنه لم ينم الليل، حضر إليه في الصباح المبكر يجري ويقول له في تردد:

– مشروع المسجد بلغته لسعادة المدير؟

فأجاب المأمور في ابتسامة خفية:

– طبعاً اليوم آخر النهار أنا ناوي أقابل سعادته.

هذه الواقعة تمثلت في رأسي فجأة عندما قال لنا القاضي في قلق: «طلب خصوصي؟» فقد قرأت ما جال في نفسه، فهو لا شك قد خاف أن نكون قادمين لطلب تبرع من هذا النوع. فأسرعت أرد إليه الاطمئنان وأخبره أن حضورنا هو لعمل من أعمال وظيفتنا، وأخرجنا في الحال من ملف أوراقنا الخطاب الغفل وعرضناه عليه وحادثناه فيما نريد منه فانشرح صدره وقال:

– موضوع بسيط. نشرب الزنجبيل أولاً.. ثم ننظر بعد ذلك في أمر البلاغ..

وصفق بيديه وصاح:

– ياشيخ حسنين. استعجل لنا الفراش.

ثم صمت قليلاً. وعاد فحيانا:

– أهلاً وسهلاً.. حصل لنا الشرف..

ورأى عبد المقصود أفندي أن يبدي صلته بالقاضي ومعرفته له فأشار إليه والتفت إليَّ قائلاً:

– فضيلته من كبار العلماء الراسخين في العلم.

ووجه الكلام للقاضي:

أنا يا فضيلة القاضي لا أنسى يوم المحاضرة لما رديت على الولد المدرس..فقاطعه القاضي مستغفراً مستعيذاً:

– أخزاه الله. أنا لا أطيق الصبر على الكفر والجهل.

والتفت القاضي إليَّ وقال:

– تصور يا سيدي البك أن هذا الأفندي مدرس جغرافيا في المدرسة

الثانوية، ألقى فيها محاضرة علنية عن عالم نصراني اسمه «شنتون» قال إنه عرف بالضبط وزن الأرض والسماء.. أستغفر الله العظيم..

وتأملت قليلاً في الاسم الذي نطقه القاضي واهتديت آخر الأمر إلى أن المقصود به العالم الرياضي «اينشتين» ولذَّ لي أن أعرف ما جرى، فهذا من غير شك صراع بين عقليتين واصطدام بين رأسين يحلو لمثلي دائماً أن يشاهده ويقف على مداه، فقلت للقاضي في شيء من الاهتمام:

– وحضرت المحاضرة يا فضيلة الشيخ!

– حضرت والأمر لله من قبل ومن بعد.

– وماذا حصل؟

– حصل يا سيدي أن هذا المدرس قام وقال في حضرة الباشا المدير وكبار الموظفين والأعيان. إن هذا العالم الكافر قد أتى بما لم يأتِ به الأوائل والأواخر، فقمت وصحت به «كداب يا حضرة المدرس، ولقد قال الله في كتابه العزيز: «مافرّطنا في الكتاب من شيء» فأسكتني الحاضرون فسكتُّ تأدُّباً لوجود سعادة المدير، ولولا هذا ما سكتُّ ورب الكعبة، ثم استمر هذا الأفندي في كلام لا هو بالمعقول ولا بالمنقول إلى أن قال: إن عالمه النصراني قد استطاع بمعادلات جبرية أن يزن الأرض والسماء! فما تمالكت نفسي ونهضت وأنا أنتفض وصحت به: «مهلاً يا حضرة الأفندي مهلاً، أخبرنا قبل كل شيء، هل هذا العالم «شنتون» وزَن السموات والأرض بالكرسي أم بدون الكرسي؟.. فارتبك المدرس ونظر إليَّ قائلاً: «كرسي إيه» فرددت عليه بالآية الشريفة: ﴿وسع كرسيُّه السمواتِ والأرضَ..﴾ أجب أيها المدرس الأفاك، ها هنا الحاصل والجوهر، الوزن كان بالكرسي أو بغير الكرسي؟..

فكتمت ضحكي وقلت في هيئة الجد:

– وأخيراً..؟

– وأخيرا يا سيدي.. لاشيء، لم يستطع المحاضر أن يجيب، واحتج

وانسحب وضج الحاضرون واختلط الحابل بالنابل، وغضب مني سعادة المدير واعتبرها إهانة لمجلسه، وترك الناس المحاضرة، وهي المسألة الأصلية، والتفتوا إلى اعتدائي على مقام المدير وهي مسألة فرعية، وتكاثروا عليَّ يطلبون إليَّ الاعتذار وأمري لله! ولكن مع ذلك أشعر أن من يومها والباشا المدير لاينظر إليَّ بعين الرضا..

وسكت قليلاً ثم قال في لهجة أخرى:

– بمناسبة الحالة السياسية اليوم، أظن الوزارة الجديدة ستجري حركة تغيير وتبديل بين المديرين ورجال الإدارة كالمعتاد؟

فلم أكد أفتح فمي لأجيب حتى دخل الفراش وهو نصف شيخ، أعني أنه يلبس العمامة على جلباب عادي قذر كجلابيب الفلاحين، وهو عاري القدمين. وقدم لنا فنجانين من طرازين مختلفين قد كسر مقبضاهما فشربت في احتراس وأنا أنظر إلى داخل الفنجان خشية أن يكون فيه بدل السكر صرصار. وفرغنا من الحديث والزنجبيل وبدأنا العمل. وطلب القاضي أوراقاً بخط موظفيه ضاهيناها بخط البلاغ فلم نجد مشابهة. وعرضنا البلاغ على مَن في المحكمة لعل أحداً يذكر لنا أنه يعرف صاحب هذا الخط فلم نظفر بطائل، وخرجنا من المحكمة كما دخلنا ومشينا في طريقنا إلى دار النيابة. فقال عبد المقصود أفندي:

– نمر بالمرة نفتش سجن المركز ونخلص.

فلم أبْدِ اعتراضاً. وذهبنا إلى المركز فوجدنا المأمور وقد جمع بعض العُمد في حجرته وجعل يشرح لهم وجهة النظر الجديدة ويصدر إليهم تعليماته بنفس الحماسة التي كان يبديها في مبدأ تولي الوزارة السالفة. فما إن رآني وعلم بالغرض من زيارتي حتى خفَّ لاستقبالي وأجلسني في صدر حجرته. وفض مجلسه وهو يشيِّع العُمد إلى الباب قائلاً:

– فتح عينك ياعُمدة أنت وهو. مرشح الحكومة في الانتخاب لازم ينجح،

أنا نفضت يدي وأنتم أحرار، مفهوم؟..

– فأجابوا في صوت واحد:

– مفهوم يا حضرة البك.

وتردد أحدهم وقال:

– فيه يا جناب البك جماعة مشاغبين أقويا كلمتهم مسموعة من العائلة الثانية الكبيرة..

فدفع المأمور في كتفه دفعاً وقال له:

– المشاغبين اتركهم لي أنا!.. تفضل.

فخرجوا جميعاً وعاد إليّ المأمور يتنفس الصعداء ويقول في صوت متعب:

– بقى لي يومين بليلتين في القرف ده.

وأردت أن أداعبه وأخيفه قليلاً فقلت:

– لكن يا حضرة المأمور معروف عنك إنك من حزب الوزارة السابقة.

فقال على الفور:

– اسكت اعمل معروف.. أنا طول عمري مع الوزارة الجديدة بلساني، واللي في القلب في القلب، والأعمال بالنيات..

فابتسمت وقلت له:

– نترك السياسة ونتكلم في الشغل..

وأخبرته بنتيجة فحص الجثة ووجود العظم اللامي مكسوراً وضرورة البحث عن المجرم في جناية الخنق الجديدة.. وطلبت إليه أن يوجه عنايته لمساعدتنا في الكشف عن الفاعل.. فقال في الحال:

– المركز مش فاضي اليومين دول للخنق والحرق..

– عجايب.. أنتم لكم شغل غير المحافظة على الأمن؟!..

– يعني حضرتك مش فاهم؟..

– لأ مش فاهم!..

– نترك الانتخابات ونلتفت للقتل والخنق؟..

طبعاً..

– التعليمات اللي عندنا غير كده!..

وتركني وجعل يعبث بقيود حديدية وسلاسل معلقة على حائطه..

وغمزني عبد المقصود أفندي كي أغلق هذا الموضوع.. وأراد أن يغير مجرى الحديث فقال:

– البك المأمور يسمح بطلب دفاتر السجن..

وشعرت أن كرامة عملي في خطر فصحت قائلاً:

– لابد أني أفتش بنفسي السجن والمركز كله.

ونهضت في قوة وعزيمة أزعجت المأمور فتردد ثم قال في رفق:

– تفضل السجن تحت أمرك.. انتظر سعادتك دقيقة واحدة.

وخرج سريعاً من الحجرة وهو ينادي:

– يا شاويش عبد النبي..

واختفى عن نظري. ودفعني دافع إلى النظر من نافذة للحجرة تطل على فناء المركز. فرأيت المأمور والجاويش يسرعان إلى سجن المركز ويفتحانه ويخرجان منه أشخاصاً تدل هيئتهم على أنهم من أهالي النواحي ذوي الرخاء ويزجان بهم في حجرة التبن والعلف ويغلقان عليهم بابها بالمفتاح، فقلت لعبد المقصود أفندي:

– تعَال وطل بعينك، ده ولا سجن الباستيل. المأمور أخفى بعض الأهالي في أودة التبن.

فقال لي عبد المقصود في شيء من التوسل:

يا بك، الوقت، بطال، والسياسة متحكمة في البلد، مافيش داعي للتدقيق..

– يعني نترك الناس في الحبس من غير جريمة؟!..

– يا سعادة البك، رئيس المأمور ولا يخفاك هو وزير الداخلية ورئيس

الوزراء في الوقت نفسه، أما رئيسنا فهو وزير الحقانية.. فقط، وقد سبق أن قضاة ووكلاء نيابة وقفوا للإدارة في ظروف سياسية مواقف من هذا القبيل قاموا نقلوهم الصعيد!..

– يعني نمضي على دفاتر المركز ونسكت؟..

– يا سيدنا البك، إحنا حانكون أحسن من مين.. كان غيرنا أشطر..

– طيب، قم استعجل لنا الدفاتر والسلام..

19 أكتوبر..

رأيت أن الطريق الوحيد بعد ذلك أن أبحث عن ذلك الخاطب الذي كان قد تقدم للبنت ريم. ولكن كيف نستدل عليه ونحن لا نعرف حتى اسمه؟! فلنطلب إذَن إلى المركز أن يأتي إلينا بأحد الجيران لعله يعرف الخاطب. وليكن الجار امرأة، فإن المرأة بطبعها فضولية ثرثارة. فما من جارة لا تعرف أسماء الخاطبين والمخطوبات في الحارة، ولكن هل أستطيع الآن أن أكلف المركز بإحضار شاهد أو بالبحث عن مجرم؟ إن السياسة وحدها هي كل شيء اليوم في المركز، ولن أجد خفيراً يلقى بالاً إلى أوامري الساعة. فلنتصل نحن مباشرة بالقرية ونطلب إلى النقطة أن ترسل إلينا المرأة المطلوبة. وأمرت في الحال حاجبي فتقدم إلى آلة التليفون وأمسك بالبوق وجعل يصيح أكثر من ربع ساعة:

– يا نقطة! يا نقطة! ردي عليَّ يا نقطة! البك الوكيل جنبي يا نقطة! ولكن النقطة غضت طرفها الناعس عنا ولم تكلف نفسها عناء الرد علينا.. واشتد غيظ الحاجب وجعلت يده تحرك جرس التليفون بقوة كادت تخلعه. وهو من

تليفونات المركز التي لا توصل الكلام بين المتكلم والمخاطب حتى ينقطع نفَس الاثنين من كثرة الصياح وحتى ينقطع حبل الحديث مئة مرة ومرة تشتبك خلالها حبال أحاديث أخرى من بلاد أخرى ومن مصالح مختلفة. فبينما يدور الكلام حول إرسال متهم إذا صوت يجيب في مسألة متعلقة بتفتيش الري وبالفتحات ونوبات الترع، وإذا آخر يتكلم في أنفار القُرعة ويطلب طلبات في لهجة الأمر والنهي. على أننا اليوم لا نلقي رداً على الإطلاق. ويد الجرس في يد الحاجب لا يقف لها دوران، كأنه يدير طاحونة بن. ولا ينفك يصيح تارة مهدداً، وتارة متوسلاً:

– أنا في عرضك يا نقطة! كلمة واحدة يا نقطة! إخص عليك يا نقطة! ردي عليَّ يا..

فما تمالكت أن صحت فيه:

– شيء لطيف! أنا قلت لك اطلب النقطة، مش غازل النقطة!

– يظهر يا سعادة البك أن النقطة خالية من حضرة الملاحظ والبلوكامين والكل كليلة..

– النقطة خالية!..

– أيام انتخابات يا سعادة البك.

– والعمل؟

– نتصل بدار العمدة ونطلب النفر والحُرمة.

– اتصل.

واستطعنا آخر الأمر أن نظفر بحضور الحرمة الجارة مع «مخصوص» وكان ميعاد غدائي قد حان. وكان قد أجهدني العمل المعتاد بالمكتب. أعني تحقيق التزويرات وقضايا الربا الفاحش والتلبس الوارد من المركز من «إيراد» اليوم، وأكثره الآن محاضر «تشرد» ضد الأهالي غير الموالين للحكومة القائمة. وما أسهل هذا السلاح وما أقواه في يد رجال الإدارة، فإن

كل نجل كريم من أنجال الأعيان يمكن اتهامه بأنه لا يحترف صناعة، ويمكن بذلك القبض عليه وحبسه أربعة أيام بإذن النيابة لحين التحري عنه وطلب صحيفة سوابقه من مصر. وأين وكيل النيابة الذي يعارض المركز اليوم في إصدار أوامر الحبس؟ وقمت للغداء بعد أن أصدرت من هذه ما شاء **الله** والمركز. وعدت بعد الظهر لسؤال المرأة، فتكلمت كلاماً كثيراً لم أخرج منه إلا أن الفتى الخاطب يدعى «حسين» وهو ليس من أهالي البلدة، بل من بلدة مجاورة.

– اسمه حسين إيه يا ولية؟ فيه ألف حسين في البلد، لقبه إيه؟

– ما أعرفش نقبه يا سيدي. البنت قالت اسمه «حسين» وأنا مالي بقى أسأل عن أصله وفصله. أنا حرمة غلبانة في حالي، بعيد عنك ما أكره عليَّ إلا كتر الكلام. أنا طول عمري يا سيدي في الحارة ما أحشر نفسي في كلام ولا في سؤال. وأنا مالي، قالوا يا داخل بين البصلة وقشرتها..

– اسكتي قلبتِ دماغي في الفارغ، داهية تقلب دماغ اللي طلبك. يعني لو عرضنا عليكِ الولد تعرفيه؟

– أعرفه يا سيدي. يا ندامة! وأنا بقى خلاص انعميت.. أنا كنت اسم **الله** على مقامك..

– كفاية.. أنت واحدة **ولله** الحمد لا تحبي كتر الكلام ولا..

– كتر كلام.. أبدا وحياة شرفك.. أنا بعيد عنك من يوم..

– بس!

وناديت الحاجب، وأمرته بإخراج المرأة وإجلاسها في الدهليز بجواره تنتظر حتى تُطلَب. وكلفته بمخابرة البلدة التي فيها الفتى ليحضر والفتيان الذين يسمون فيها باسم «حسين» ممن تنطبق أحوالهم وأوصافهم على ما لدينا من المعلومات. وجلست أنتظر ساعة وأنا أفكر في قيمة هذا العرض «القانوني». إني لا أثق كثيراً بفراسة هؤلاء النسوة. وما زلت أذكر قضية قَتْل

أتينا فيها بزوجة القتيل وعرضنا عليهم المتهم بين أشخاص آخرين جئنا بهم عفوا من قاعة الجلسة المدنية المنعقدة في صباح اليوم وكان من بين هؤلاء شخص منكود الطالع أتى يحمل مستندات شركته في جاموسة ويسمع الحكم على خصمه بالطلبات. فإذا هو يجد نفسه قد زُجَّ بين الأنفار الذين أُخِذوا من قاعة الجلسة ليقفوا في صف طويل في قاعة النيابة، وقد أخرج عليهم وكيل النيابة امرأة شمطاء، أمرها أن تبرز القاتل من بينهم. فتفرست المرأة الوجوه وهي تدق صدرها وتدعو بالويل على قاتل زوجها، ودنت من القاتل الحقيقي ومرت عليه مر الكرام، ووصلت إلى ذلك المسكين صاحب المستندات الذي ليس له في الثور ولا في الطحين، فلكمته في صدره لكمة كادت ترديه و«رقعت» بالصوت:

– غريمي!..

فأرتج على الرجل وقد فوجئ ثم تمالك وقال:

– يا ستي أنا اعرفك؟

فلم تسمع إليه المرأة ومضت تولول:

– غريمي! دمي. غريمي..

والتفت إليَّ الرجل كالمستجير:

– يا سيدي البك. أنهضني. أنا عمري لا شفتها ولا قابلتها..

فقام وكيل النيابة، وهو أنا ولا فخر، بأسئلته «التجارية» المحفوظة عن ظهر قلب، المعتبرة من «روتين» العمل التي إذا لم تُسأل أحصتها الرياسة علينا هفوة، وإن لم يكن هناك محل لتوجيهها، أسئلة سخيفة لا تعني شيئاً في ذاتها ولكن القضاء يعتبرها محرجة مضيقة على خناق المجرم:

– بينك وبينها ضغائن؟

– أبداً يا سيدي ولا أعرفها..

فتمهلت قليلاً لكي ألقي ذلك السؤال الذي يلقيه كل وكيل نيابة وكل قاض

في ثقة واطمئنان كأنما يلقي يده على الدليل المبين:

– إذن ما سبب ادعائها عليك؟..

– أنا عارف!.. مصيبة على الصبح وارتمت عليَّ..

– احجزه يا عسكري!..

– يحجزني؟.. أنا يا سيدنا البك لي قضية مدنية تحت.. اعمل معروف خليني اروح لشغلي..

وأُلقي الرجل في الحبس الاحتياطي.. ونوديت قضيته المدنية فلم يحضرها بالضرورة فشطبت دعواه وجلس الرجل القرفصاء على الأسفلت ومستنداته في يده يفكر فيما آل إليه حاله بلا مبرر ولا جريرة..

تذكرت ذلك وقلت في نفسي: «كلَّا لا ينبغي أن نبالغ في قيمة العرض القانوني»، إن هؤلاء الفلاحين بأعينهم التي أكلها الصديد منذ الطفولة، ومداركهم التي تركت هملا على مدى حكم ولاة من جميع الأجناس لا يمكن أن يركن إليها في حكم أو تمييز .. وهل هناك أعجب من «عرض قانوني» آخر قمت به في قضية تزوير، وكان المتهم «أفندياً» وقد وضعتُه بين أشخاص مطربشين وجئت بالمجني عليه الفلاح وأمرته بإخراج «غريمه» من بين هؤلاء فتفرس في الوجوه لحظة ثم ترك الصف بأكمله ووقف تجاهي أنا وكيل النيابة المحقق وأطال النظر في وجهي وقد بدت في عينيه علامات الشك الذي سيتبعه اليقين أنه وقع أخيراً على المجرم الحقيقي، وكان حاضراً عندي وقتئذٍ أحد كبار مفتشي النيابات زائراً وقد أراد أن يشهد عملية العرض. فهالني أن يطيل الرجل شكه فيَّ أنا فيبدو للمفتش رأي لا أرضاه، فانتهرت الفلاح وأمرته أن ينظر في الصف الذي أمامه ويخرج منهم المتهم. فكان اللعين يمر بالصف مَرًّا سريعاً ويعود فيلقي بصره عليَّ ويفحصني من رأسي حتى إخمص قدمي فحص المشتبه المستريب. ولن أنسى اضطرابي يومئذ. وقلت في نفسي: «الله يكون في عون المعروضين» ولم أجد عند ذاك مندوحة

من أن أنهي عملية العرض في الحال قائلاً في سرعة: «لم يستعرف المجني عليه على أحد» وأمرت الحاضرين بالانصراف، فخرج الرجل وهو ما زال يختلس إليَّ النظر. كلا إن تلك الإجراءات التي تتبع في أعمالنا القضائية طبقاً للقوانين الحديثة ينبغي أن يراعى في تطبيقها عقلية هؤلاء الناس ومدى إدراكهم وقدرتهم الذهنية. أو فلترفع تلك المدارك إلى مستوى تلك القوانين!

وحضر المطلوبون وأوقفناهم في صف طويل وأدخلنا المرأة فتقدمت وهي تقول:

– بسم الله الرحمن الرحيم.

ولم أترك لها مجالاً للثرثرة. فقد انتهرتها:

– كلمة ورد غطاها يا ولية. مَن في الحاضرين الخاطب؟..

فدنت من أقرب الفتيان إليها ونظرت إليه بعينها «العمشاء» نظرة «العرضحالجي الأضبش» إلى «عريضة» يرفعها في يده حتى تمس أنفه.

وقالت له في صوت خافت تريد ألا يصل إلى مسامعي:

– أنت «يا ادلعدي» مش اسمك حسين؟

فأدركت في الحال مبلغ علم المرأة بما انتدبت لأجله وقلت لها في شدة:

– كل الجدعان اللي قدامك يا ولية اسمهم حسين.

– قطيعة!

– لفظتها المرأة في صوت الواقع في حيرة من أمره ثم اتجهت إلى التالي وسألته:

– أنت منين يا جدع أنت؟

فأجابها الرجل في صوت هادئ:

– من امبابة يا ستي!

فقالت على الفور في لهجة الجد:

– دي بلد الحمير يا جدعان. دا كان مرة «ادلعدي» جوزي اشترى منها

حمار..

فلم أتمالك أن صحت:

– اخرجي يا «قرشانة» يا «وحشة» يا قليلة الحيا.. ضيعت وقتنا نهار بحاله. إخص على دي شهود.

قلتها من غيظي وأنا ليس من عادتي «القباحة»، ولكن هذه المرأة التي أفهمتني أنها رأت الخاطب بعينها وتعرفه إذا حضر أمامها قد اتضح الساعة أنها لا تعرف إلا اسمه وحتى هذا الاسم الأبتر «حسين» مَن أدرانا إذا كان هو اسمه الحقيقي أو أنها كلمة ألقتها على عواهنها هذه المرأة «الهجاصة». وسألت الحاضرين عن الخاطب فلم أجد بينهم من يفهم غرضي أو من يعرف شيئاً عن الموضوع. فصرفتهم. ولم أخل إلى نفسي وأفكر فيما ينبغي عمله بعد ذلك، حتى فتح الباب ودخل عليَّ مساعدي آتياً من البندر حيث كان يترافع في قضايا الجنايات التي أحلتها عليه وقد رأيت وجهه نضراً مشرقاً وابتدرني قائلاً:

– البنادر هي النعيم، يا خسارة رجعنا بسرعة إلى جحيم الريف!

– أخذت أحكام براءة؟

– أنا نزلت في أحسن بانسيون وصرفت ضعف بدل السفرية.

– رد على سؤالي. القضايا عملت فيها إيه!

فوجم الشاب قليلاً، ولم يكن ينتظر مني الكلام في العمل والجد منذ اللحظة الأولى. وكان يحسن بي فعلاً أن أكون به لطيفاً رقيقاً، ولكن القضية التي في يدي أتعبت أعصابي، أو لعل شيئاً من الحسد الخفي قام في نفسي إذ رأيت هذا الفتى عائداً كالزهرة المشرقة من ذلك النعيم الذي يقول عنه بينما أنا راسف في أغلال الوظيفة غارق في عمل ذي مسؤولية لا يقف ولا ينتهي، وتنبهت مع ذلك لخشونتي وأردت أن ابتسم واتكلم في غير القضايا.. ولكن المناسبة كانت قد فاتت ومضى المساعد يحدثني عن القضية التي

ترافع فيها قائلاً: إن المتهم فيها قد حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة لأنه قتل رجلاً في نظير مبلغ خمسة جنيهات. فالقاتل رجل سوداني بدوي قوي الجسم يحترف إزهاق الأرواح. وقد اتفق معه أحد الفلاحين على قتل خصم له وحررت الكمبيالة بثمن «الروح» وانطلق ذلك المحترف حاملاً بندقيته كما يحمل الفنان قيثارته، ووقف بها تحت نافذة المسجد حتى دخلت «الروح» الغالية وسجدت تصلي فأرسل إليها ذلك المتربص من بين قضبان النافذة قنبلة واحدة ذات صفير من «ماسورة» أرغوله الجهنمي كانت فيها الكفاية وهي صناعة تحتاج إلى ثبات يد، كصناعة النجارة، فالنجار الحاذق يضرب المسمار ضربة واحدة لا عوج فيها ولا ميل، تصيب اللوح في الصميم. وكان مصير هذا الدم الضياع كالمعتاد ومآل القضية البراءة، لولا خلاف دب بين البائع والمشتري. فالقاتل سلم «البضاعة» حاضرة، ولكن المشتري مطل بالثمن. ولم يطق القاتل المحترف صبراً على هذا «الزبون» المتوقف عن الدفع، فصاح به وسط الجلسة غير مراع حرمة قضاء ولا قضاة:

– عايز أقتله لك لوجه الله؟

وترك «زبونه» والتفت إلى هيئة المحكمة:

– اشهدوا يا ناس على قلة الشرف، أنا برضه أستحق الشنق؟ اللي ما قبضت مقدم. هو يخرب البيوت إلا الشكك!!

وضحكت قليلاً أنا ومساعدي. وقد أبديت له ملاحظتي على هذه التجارة أو الصناعة المعروفة في الريف. وهي الاستئجار على القتل. إن الفلاح المصري يلجأ كثيراً إلى محترف يقتل له، كما كان بعض ملوكنا الأقدمين يلجأون إلى الجنود المرتزقة. أهو نقص خلقي في الفلاح يضاف إلى أمراضه الجثمانية والفكرية والاجتماعية الكثيرة. أم أنها قلة مَقدرة وضعف ثقة بالنفس منشؤها اشتغاله بأعمال العبيد من قديم في الأرض والزراعة وترك الفروسية والجندية للمغيرين وأقربهم بنا عهداً الأعراب والأتراك. إن الملاحظ على أشهر محترفي

القتل في الأرياف أنهم من دم أجنبي. أم أن الفلاح يحب السلام ويأنف أن يزاول سفك الدماء بيده التي تبذر البذر ويخرج منها الخير. لست أدري. إن الأمر يحتاج إلى درس خاص. ويكفينا نحن المتصلين بهذه المسائل أن لا نمر عليها بغير ملاحظة. وقد أفهمت مساعدي أن مهنتنا سخية بمادة البحث والملاحظة. وأنه طول حياته بها لا ينبغي أن يسير مغمض العينين فهي خير مهنة تكوّن الرجل تكويناً صحيحاً. فوكيل النيابة إن هو إلا حاكم صغير في مملكة صغيرة إذا فهم كل شيء في هذه المملكة، ولاحظ كل شيء ودرس الناس وطباعهم وغرائزهم، فقد استطاع بعد ذلك أن يعرف تلك المملكة الكبيرة التي هي دولته، بل استطاع أن يفهم ذلك العالم الأوسع الذي هو «الإنسانية». ولكن كم من رجال النيابة أو القضاء يستطيع أن يلاحظ؟ إن قوة الملاحظة هي أيضاً هبة عظيمة لا يملكها كل الناس. وقد وعى مساعدي هذا الكلام وهو على قسط وافر من الذكاء. فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه وأخبرني أنه لاحظ أمراً استوقف تفكيره في جلسة الجنايات، ذلك أن المستشارين ينطقون بادئ ذي بدء بالحكم. ثم ينصرفون بعد ذلك إلى كتابة الأسباب. والمنطق الذي يتصوره هو أن يكون الأمر على العكس. ملاحظة قيمة. ولقد أخبرني فعلا أحد المستشارين من أهل الصراحة أنه بعد أن نطق ذات مرة بالحكم في جناية خطيرة ورجع ليلاً إلى مكتبه وورقه وملفات القضية ليكتب الحيثيات، وقع نظره على أقوال وعبارات في محضر جلسة اليوم، وفي المحاضر السابقة، وفي تحقيق النيابة استخلص منها تفكيره الهادئ الرزين في ذلك الليل الساجي ما لو عرفه قبل النطق بالحكم لكان حكمه قد تعدل وتبدل. ولكن ما العمل الآن وقد تم النطق بالحكم وما من سبيل إلى تغييره بأي حال؟ لا يستطيع أن يصنع شيئاً. فجعل همه تلك الليلة أن يستخرج من الأوراق جميع الأسباب التي يبررها النطق بالحكم. وكم من الحيثيات الطويلة تكتب تبريراً وتدعيماً لحكم سريع مضى النطق به، لا تفسيراً لعدالة ولا تمحيصاً لحقيقة..

20 أكتوبر..

قمت في الصباح بجرد خزينة المحكمة.. فالنيابة هي التي من شأنها مراقبة الخزينة، وعليها أن تقوم بهذا الجرد مرتين على الأقل في كل شهر بطريق المفاجأة. ويظهر أن كلمة «المفاجأة» وضعت في اللوائح والتعليمات من قبيل التشويق كما توضع في إعلانات المسارح، فهي في العمل لا وجود لها. وقد جرت العادة أن ينسى وكيل النيابة لكثرة مشاغله هذا الجرد فلا يذكره به إلا الصراف المقصود مفاجأته، فهو الذي يطلب في إلحاح حضور البك الوكيل «ليفاجئه» بالجرد في تمام العاشرة قبل إيداع الأموال في خزانة المديرية حتى يسدد الخانة طبقاً للقانون. وفي أكثر الأحيان لا يشعر وكيل النيابة إلا وقد فوجئ هو بالدفتر الخاص بالخزينة يُعرض عليه مع المحضر محرراً باسمه «نحن فلان وكيل النيابة قمنا اليوم فجأة بجرد الخزينة، فوجدنا بها كذا أوراقاً مالية ثمينة وكذا فضة وكذا أشياء ثمينة وكذا أمانات»، فيوقع وهو لم يتحرك من كرسيه وهو يقول: «خذوا إمضا وحلوا عني بلا وجع دماغ» غير أني أنا شخصياً أنتقل بالفعل وأشاهد الخزينة وإن كنت أوقع آخر

الأمر على كل حال دون أن أطيق صبراً على عد النقود التي توضع أمامي. وانتهيت من هذه المأمورية، وعرجت على مخزن النيابة في طريقي أفتشه «بالمرة» وهو عبارة عن حجرة تشبه دكان «ألف صنف» فيها من أصناف البنادق والغدارات الريفية والسكاكين والشراشر والمناجل والفؤوس والبُلط والنَّبابيت والهَّراوات و«اللِّبّد» و«البُلّغ» و«الجلابيب» الملطخة بالدم والطين و«الصداري» المثقوبة بالرش والبارود، كلٌّ عليه رقمه وتاريخ ضبطه ورقم القضية التي ضبط على ذمتها. وعندي أن نظرة واحدة تلقى في مخزن نيابة أيّ بلد تدل في الحال على لون هذا البلد وعقليته ودرجة حضارته. ولاشك عندي في أن مخزن نيابة «شيكاغو» مثلاً لا يمكن أن يحوي مطلقاً هراوة أو شرشرة. وصعدت بعد ذلك إلى مكتبي، فوجدت حضرة القاضي «المقيم» في الانتظار وقد أحضر له الفرَّاش القهوة، فما كاد يراني حتى صاح:

– خلاص الفوضى دبت في البلد!

فأردت أن افتح فمي أسأله الإفصاح، فلم يمهلني ومضى يقول:

– راحت هيبة الأحكام!

– إيه المسألة؟!

– المسألة يا سيدي أني أصدرت حكما مدنياً ضد عمدة من الموالين للحكومة وراح المحضر ينفذ عليه، تعرف حصل إيه؟

– لأ.

– انضرب بمعرفة العمدة «علقة» لكن «نضيفة» وانحبس أربعة وعشرين ساعة في حجرة التليفون.

– والمركز عمل لها قضية؟

– أبدا. ما هي هنا الخطورة. لا قضية ولا مذكرة ضحكوا على المحضر وقالوا له يسحب شكواه وصرفوها.

– ما داموا صرفوها انتهينا.

– انتهينا ازاي؟ أنا لا يمكن أسكت عن مسألة زي دي. دا اسمه إجرام! البوليس يجرم..

– يظهر أن حضرتك اشتقت لحرّ وجه قبلي.

– ينقلوا قاضي وجه قبلي لأنه أراد منع المركز من العبث؟..

– عملوها كتير. وسبق نقلوا قاضي أقاصي الصعيد لأنه أفرج في قضية معارضة عن متظاهرين ضد الحكومة، مع أن هذا القاضي كان من المحايدين البعيدين عن الأحزاب وعن السياسة. ولا يخفى أن بينك وبين المأمور سوء تفاهم عائلي وساعتها تلقى المأمور حرَّر التقارير السرية عنك واتهمك بأنك من خصوم الحكومة، وأنك من أرباب الفتن والدسائس، وأنك تضطهد أنصار الوزارة، وأنك خطر على سياستها الحاضرة إلى آخر هذا الأسلوب المعروف.

– شيء جميل. البوليس يحرر التقارير السرية ضد القضاة؟!

– حصل.

– والعمل إيه؟

– اترك لي المسألة. أنا أتحرى من المركز بلطف وأجري اللازم..

– لهذا الحد تعبث السياسة عندنا بالعدالة والنظام والأخلاق، أعوذ بالله! شيء مخيف..

وجعل يهز رأسه أسفاً وحنقاً. ثم التفت إليَّ فجأة وقال:

– دا صحيح، تصور فضيلة القاضي الشرعي «الضلالي» عامل اليوم أنه صديق المأمور الحميم مع أنه كان يكرهه كراهة التحريم من بعد حادثة الأجزاخانة!

فأبديت عجبي. إني حقيقة كنت قد سمعت من المأمور فيما سمعت من أخبار القاضي الشرعي هذه الحادثة: أن أهالي البلد وأعيانها لاحظوا افتقار البلد إلى أجزاخانة «أصولية» تغنيهم عن البنادر الكبيرة فاكتتبوا فيما بينهم بمبالغ أسسوا بها أجزاخانة نظيفة كاملة الأدوات وعينوا لها «أجزجي»

قانوني هو رجل سوري يسمى «جبور» ثم تباحثوا فيمن يصلح مشرفاً على مالية هذه الأجزاخانة وعلى إدارتها، ووقع الاختيار في آخر الأمر على فضيلة القاضي الشرعي.ومَن غير فضيلته بلحيته الوقورة وسبحته الطويلة يؤتمن في هذه البلدة على أموال المسلمين وغير المسلمين من المساهمين؟ ووافق المأمور على تنصيب القاضي الشرعي مشرفاً وتكرّم فضيلته وتسلم مهام عمله بأن جعل مجلسه عصر كل يوم أمام باب الأجزاخانة حيث يتنحنح ويبدأ باسم **الله** والصلاة على نبيه وصحبه. ثم يصيح:

– يا خواجة جبور. القهوة والشيشة!

ثم يجتمع عليه من أصدقائه وأقاربه الآتين من الكُفُور عدد كثير كل يوم، فيأمر لهم بالقهوة أو الشاي. وكل هذه الطلبات طبعاً على حساب الأجزاخانة. وهو لا ينسى مطلقاً أن يلقي نظرة على مستحضرات المحل قبل انصرافه وهو يقول لجبور:

– عندك صابون ممسّك من العال! زجاجة «الريحة»، «الكلونيا» دي لا بأس بها!..

ولا يكاد يدخل فضيلته منزله حتى تكون هذه البضاعة التي أعجبته قد سبقته إلى البيت. ويُجلس أحياناً أطفاله إلى جواره بباب الأجزاخانة أو يتركهم يلعبون حوله فإذا جاعوا أو بكوا صاح القاضي في الأجزجي القانوني:

– يا خواجة جبور! هات للأولاد كم قرص نعناع من عندك!

حتى ضاق ذرع الأجزجي جبور آخر الأمر. فصاح في القاضي ذات يوم:

– شو ها العما!

ونشب الشجار بين المشرف والأجزجي. وأقسم جبور أن يكسر ساق القاضي إذا حضر إلى الأجزاخانة بعد ذلك. واستغاث بالمأمور، وعرض عليه ما وصلت إليه حالة الأجزاخانة. فإذا هي موشكة على الإفلاس، فقد اختفت

مستحضراتها، ونضبت مواردها ولم يبق أمل في بقائها، فإن الأجزجي هو الآخر اقتداء بفضيلة المشرف الوقور لم يقصر في الإجهاز من جهته على الباقي من «الدرج» والبضاعة والأدوات، وتغيظ المأمور وصاح في الأعيان المساهمين:

– الحق علينا اللي صدقنا اللحية والسبحة!

ومنذ ذلك اليوم والمأمور دائم التشهير بالقاضي الشرعي، والقاضي الشرعي من جهته دائم النَّيل من المأمور.

ولكن السياسة قد جعلت رجال الإدارة اليوم أصحاب سلطة مخيفة.

وقد خشى فضيلته على نفسه، ورأى بحكمته أن الأمان في مصاحبة المأمور. فهل يحجم عن التقرب إليه والتزلف له؟

مر بخاطري كل ذلك وأنا جالس وأمامي القاضي الأهلي، ولم أتمالك فقلت كالمخاطب نفسي:

لا بأس من الصلح، لكن في الظروف الحاضرة.. فيه شيء اسمه كرامة..

فرفع القاضي يده في حركة ذات معنى وقال:

– كرامة مين يا «مونشير»!

ونهض يريد الانصراف وهو يميل عليَّ ويقول بصوت منخفض:

– كلام في سرك. في يوم حضر إلى بيتي فلاح ومعه خروف وقال «الهدية». فقلت له: «هدية إيه يا راجل»؟ فقال: «الهدية اللي تم عليها الاتفاق علشان رد الوليَّة مراتي». ففهمت وقلت له في الحال: «إنت يا رجل غلطت في البيت إنت قصدك شخص آخر».

فلم أبد دهشة كبرى وأطرقت برأسي. وسكت القاضي محدثي قليلاً. ثم تحرك نحو باب الحجرة وحياني بيده تحية مختصرة وذهب، وجلست وحدي قليلاً أفكر في كل ذلك، ورأيت أن أقوم إلى المركز في شبه زيارة خاصة لأستطلع من المأمور عما أخبرني به القاضي. فانطلقت بمفردي وخلفي

حاجبي حتى بلغت حجرة المأمور، فوجدته في هذه المرة أيضاً مع أحد العمد يحادثه في شبه عنف، ولم تكن سيما هذا العمدة تنم عن يسر ولا عن وقار، ويخيل إليّ أنه من أجلاف العمد. فالعمدة «كالجرادة» يتخذ شكل الأرض التي يولد فيها. فالأرض الخضراء تخرج الجراد الأخضر، والأرض القحلاء تخرج الجراد الأغبر. وهذا العمدة الأغبر لا شك من بلاد قاصية فقيرة على حدود المركز قريبة من الصحارى. وسلمت على المأمور وقلت له باسماً:

– دايماً مع العمد!

فقال في نبرة تعب:

– نعمل إيه يا سيدي!

ثم اجلسني وطلب لي القهوة. إذ على الرغم من اعتكافي عنه وعن ناديه، فهو يحترمني ولا يحمل لي ما يحمله لغيري من الضغن، فإني حريص دائماً مع رجال الإدارة على تنفيذ أوامري في مظهر بسيط لا يشعرهم بغضاضة الأمر. واستأذنني المأمور في إتمام حديثه مع العمدة لينتهي من شأنه ويتفرغ لي فأذنت له. فالتفت إلى الرجل وقال له في صياح وتهديد:

طول بالك، أنت يظهر عليك إنك مش عارفني. والله لابد من أني..

فقاطعه العمدة مستعطفاً:

– أنا رجل غلبان.

فمضى المأمور في وعيده:

– انتظر! إن ما كنت أدخلك البرلمان. ما ابقاش أنا مأمور المركز!

– ليه؟ أنا عملت إيه بس تدخلني البرلمان؟!

قالها الرجل في توسل وارتياع. فضحكت وعجبت. والتفت إليَّ المأمور قائلاً:

– كشوف الانتخابات في جيبه، ومش عارف حضرته البرلمان ده يبقى إيه. ويسموهم عُمد، ونشتغل معهم!!

ثم عاد المأمور والتفت إلى الرجل قائلاً:

– تفضل من غير مطرود!

فخرج العمدة ذليلاً كأنه خادم أو مجرم، وقلت في نفسي: «هذه الذلة التي يذوقها في حضرة رجال الإدارة لن تذهب سُدى، فهو سيذيقها بعينها لأهالي القرية التي يحكمها، فإن كأس الإذلال تنتقل من يد الرئيس إلى المرؤوس في هذا البلد حتى تصل في نهاية الأمر إلى جوف الشعب المسكين وقد تجرعها دفعة واحدة».

وجلس إليَّ المأمور يعرف سبب «تشريفي» المركز بالزيارة، فأخبرته أنه «الشوق» فابتسم المأمور ابتسامة غير المؤمن بهذا السبب الأفلاطوني، ولم أصرّ كثيراً على كلمتي، وقلت في هيئة الجد:

– بلغك يا حضرة المأمور أن أحد المحضرين ضربوه وحبسوه أثناء تأدية وظيفته؟

فأجاب من فوره:

– ما عنديش خبر.

– حصل تبليغ للمركز؟

– لو كان حصل كنا ضبطنا لها واقعة وعملنا قضية.

بالتأكيد.

أطرقت قليلاً، وفكر المأمور لحظة ثم قال:

– حد بلغ سعادتك بشيء؟

– لو كان حد بلغني كنت في الحال باشرت التحقيق.

مؤكد.

– المسألة يظهر أنها مجرد إشاعة.

فانطلق المأمور يقول:

– هي وحياتك إشاعة خارجة من بطن المحكمة لتشويه سمعة المركز،

وأنت لا يخفاك أن حضرة القاضي «طالع فيها» وغرضه يشنع علينا بأي طريقة..

وأراد المأمور أن يسترسل، فبادرت بإغلاق هذا الباب حتى لا أزج بنفسي في هذا الشجار القائم بينهما. حسبي أني أفهمت المأمور من طرف خفي أني لست بغافل عن الموضوع، وأني لا أحجم عن اتخاذ الإجراء اللازم فيه، ونهضت في الحال، ونهض معي وقلت مازحاً:

– والانتخابات يا حضرة المأمور..؟

– عال.

– ماشية بالأصول؟

فنظر إليَّ مليًّاً، وقال لي في مزاح كمزاحي:

– حانضحك على بعض؟! فيه في الدنيا انتخابات بالأصول!!

فضحكت وقلت:

– قصدي بالأصول: مظاهر الأصول.

– إن كان على دي اطمئن.

ثم سكت قليلاً، وقال في قوة وخيلاء:

– تصدق بالله؟ أنا مأمور مركز بالشرف. أنا مش مأمور من المآمير اللي أنت عارفهم، أنا لا عمري أتدخل في انتخابات، ولا عمري قلت انتخبوا هذا وأسقِطوا هذا، أبداً، أبداً، أبدا. أنا مبدئي ترك الناس أحراراً تنتخب كما تشاء..

فقاطعت المأمور وأنا لا أملك نفسي من الإعجاب:

– شيء عظيم يا حضرة المأمور، بس الكلام ده مش خطر على منصبك؟ أنت على كده.. أنت رجل عظيم..

فمضى المأمور يقول:

– دي دايماً طريقتي في الانتخابات: الحرية المطلقة، أترك الناس تنتخب على كيفها، لغاية ما تتم عملية الانتخابات، وبعدين أقوم بكل بساطة شايل

صندوق الأصوات وأرميه في الترعة، وأروح واضع مطرحه الصندوق اللي احنا موضَّببنه على مهلنا.

– شيء جميل!

قلتها في شيء من الاستغراب ممزوج بخيبة الأمل. ولم أشأ أن أعقب على ما سمعت. ومددت يدي مسلماً. وخرجت خلفي المأمور يشيعني إلى الباب الخارجي، وإذا بي أرى، وأنا أجتاز فناء المركز، شرذمة من الخفراء تتأهب للشحن في «اللوريات»، ومن بينهم الشيخ عصفور بأسماله وعوده الأخضر، فالتفتُّ إلى المأمور أسأله في ذلك، فقال وهو يشير بيده إلى الرجال:

– أنفار قايمة لحفظ النظام ساعة إعطاء الأصوات.

– والشيخ عصفور ما له ومال الانتخابات؟!

– مواويله تؤثر على عقول الفلاحين!

– يعني منتدب للدعاية!

فابتسم المأمور ابتسامة المصادق على ملاحظتي، وابتسمت أنا أيضاً وأنا أضيف قائلاً:

– حتى الشيخ عصفور شغلتوه في السياسة!

فنظر إليَّ المأمور نظرة ذات معنى، وقال في تنهد:

– نعمل إيه بس!

وفي هذه العبارة وهذا التنهد كل الكفاية في جعلي أرثي لحال هذا المأمور وأقدِّر دِقة موقفه ومسؤوليته أمام الرؤساء الذين يطلبون إليه نتائج معينة بالذات بكل الوسائل التي يراها مؤدية إلى الغرض، فإن أحجم أو تردد نكلوا به بغير رحمة ولا شفقة.

ومررت في سيري بجوار الشيخ عصفور فابتدرته:

– البنت ريم راحت فين؟

فنظر إليَّ الرجل شزراً ولم يعن بالرد عليّ. فأعدت عليه الكَّرة في شيء من

الرفق والاستعطاف:

– ريم يا سيدنا الشيخ. نَفَسك ويانا في مسألة البنت ريم!

فهز الرجل رأسه، ولوّح بعوده، وقال مترنماً:

إيــش راح ينـويــك

مـن الشكيـان ويفـيدك

ليــه مـا حكمتـــش

على طيـرك وهو في إيدك

فابتسمت وقلت للشيخ عصفور وأنا أشير بأصبعي إلى المأمور:

– قل لحضرة المأمور وهو اللي استلم الطير!

21 أكتوبر..

ما كدت هذا الصباح أرشف فنجان القهوة على مكتبي حتى وردت إشارة تليفونية بوقوع حادثة تسمم في دائرة المركز: امرأة تناولت من مطلقها فطيرة فظهرت عليها الأعراض، وهي تتهمه بسمّها للتخلص من النفقة الشرعية. كلام معقول، ومسألة تستدعي التحقيق من غير شك. ولكني من جهة أخرى أعرف قضايا التسمم. وما فيها من «قرف» خصوصاً على الصبح. وأعلم أني سأنتقل فأجد امرأة عائمة في بركة من القيء والبراز. وكلما وجهت إليها سؤالاً تلقيت جواباً، لا من الكلمات، بل من الـ.. أعوذ بالله! ولم أتمالك وأخرجت منديلي وبصقت فيه. وجعلت أفكر في إحالة هذه القضية على المساعد.وطلبته بالفعل فحضر فسلمته الإشارة، فمر عليها بنظرة سريعة وصاح:

– تسمم، وأنا عمري حققت قضايا تسمم أو حتى حضرت تحقيق التسمم!

كلامه هو الآخر معقول. خصوصاً التسمم. حتى أنا القديم المتمرن. لا أستطيع تحقيق هذه القضايا إلا ومعي «الاستمارة» المنصوص عنها في

تعليمات النائب العمومي. هذه الاستمارة فيها أسئلة معينة بالذات لابد من سؤالها وتلقِّي الجواب عنها. وترفق صورة من هذه الأسئلة والأجوبة مع تقرير وجيز بالقطرميز الحاوي «لعينات» القيء والبراز لإرسالها للتحليل. هذا مع عدم نسيان قص أظافر المتهم وقص جيوبه وإرسالها كذلك داخل أحراز مختومة للتحليل الكيماوي. إذ كثيراً ما تكون آثار الزرنيخ عالقة بالأظافر والجيوب. وناديت كاتب التحقيق، وأمرته بتهيئة اللازم للقيام، وطلبت إليه الاستمارة المذكورة ألقي عليها نظرة وأتذكر ما فيها. فأحضرها وأحضر معها التعليمات فقرأت ما يلي:

«فقرة 141» – عند إرسال الأحراز إلى القلم الطبي الشرعي.. على النيابة أن ترسل في آن واحد للنائب العمومي.. الاستمارة الآتية بعد استيفاء جميع الخانات بالضبط:

(1) تاريخ التبليغ عن الحادثة.

(2) اسم المصاب وعمره وجنسيته.

(3) هل كان المصاب في صحة جيدة قبل الإصابة؟

(4) الأعراض التي لوحظت: كالقيء، الإسهال، الألم، العطش، ألم الرأس، الدوار، فقد قوة الأطراف، التقلصات، النعاس، العرّق، التيبُّس، حالة الحدَقتين، النبض، التنفس!

(5) هل كان المصاب يشكو من مذاق خاص في فمه من الطعام؟

(6) هل حصل للمصاب تخدير أو تنميل بلسانه أو أطرافه؟

(7) هل حصل للمصاب غيبوبة؟

(8) هل حصل له تشنجات أو التواءات بالعضلات؟

(9) هل ظهرت الأعراض فجأة؟

(10) هل سبق أن حصل للمصاب حالة تشبه هذه؟

(11) الفترة بين تعاطي المادة المشتبه فيها وأول ظهور الأعراض؟

ملاحظة – يجب ذكر تواريخ واضحة وساعات معينة عما تقدم، أي أنه لا يقال مثلاً بعد اليوم الثاني بثلاث ساعات أو في يوم (الاثنين) بل يقال مثلاً ابتدأت الأعراض في الساعة 4 بعد ظهر يوم 16 شهر كذا سنة كذا وأول ما لوحظ منها هو كذا وذلك في الساعة 3 مساء أو صباحاً بالضبط..».

شيء جميل جداً!! كل هذه الأسئلة ينبغي أن تطرح على مصاب لا يعرف رأسه من رجليه. والأعجب من ذلك أن نطالبه بأن يخبرنا بأن الأعراض ابتدأت في الساعة كذا بالضبط. إذ لا ينبغي أن يقال مثلاً يوم (الاثنين). بل على هذا المصاب المسكين الغارق في متحصلات جوفه الشاعر بالدوار وفقد قوة الأطراف والتقلصات والنعاس.. إلخ إلخ.

باعتراف الاستمارة.. على هذا الرجل أو هذه المرأة الفلاحة الساذجة التي لا تحمل في جيبها ساعة وربما لم تر في حياتها الساعة أن تقول لنا إن الأعراض لوحظت أول ما لوحظت في الساعة 3 والدقيقة.. بالضبط!!

النهاية. قمنا نصُب هذه الأسئلة على رأس المرأة المسمومة. واصطحبت معي المساعد يشاهد حتى تزول حجته في المستقبل. غير أننا ما كدنا نتحرك حتى وردت إشارة تليفونية أخرى قدمها إليّ الحاجب فقلت:

– نهار باين من أوله:

وقرأت فإذا هي إخطار من المستشفى الأميري بوفاة قمر الدولة علوان. فصحت: «مات الرجل قبل أن نعرف منه سر الموضوع». وطلبت قلماً وأشرت في الحال على ذيل الإشارة العبارة المألوفة في مثل هذه الحالة: «نأمر بتشريح الجثة». وقلت للمساعد أن يذهب لحضور التشريح وإفادتي بنتيجته بمجرد الفراغ منه. فمضى هو إلى المستشفى. ومضيت أنا إلى منزل المرأة التي أكلت الفطيرة، وكان الأمر فعلاً كما توقعت، وجدت المرأة في صحن الدار وحولها جاراتها لم يتركن فيما يخيل إليَّ آنية، ولا «حَلة» ولا «كروانة» في الحارة إلا أتين بها ووضعنها تحت فم المصابة المطروحة أرضاً تتلوى

وتحشرج. ونظرت نظرة إلى كاتب التحقيق فِهم منها أن يفتح المحضر، وتقدمت بين الأواني المملوءة حتى دنوت من المجني عليها وسألتها:

– اسمك وعمرك وجنسيتك؟

فلم تجب. ولم يَبد على وجهها الباهت المتقلص العضلات أنها فهمت عني. فأعدتُ عليها الكرَّة في شبه صياح، فلم يخرج من فمها غير أنين طويل ممزوج بشروع في قيء جديد. وقد أسرع بعض النسوة إليها يسندن رأسها المائل بأكفهن، وهن يتهامسن:

– أيوة يسيبها في غُلبها!

فأجبت مؤمّناً على منطقهن وكأني أخاطب نفسي:

– والله كان بودي أتركها في غلبها، لكن أعمل إيه؟ قلم النائب العمومي في انتظار الاستمارة والقطرميز!

وتشجعت امرأة لَسِنَة بين النسوة وقالت لي:

– «مش ادلعدي» حضرتك طالب تعرف اسمَها؟ اسمها نبوية.

– نبوية إيه؟

– لأ ما نعرفش غير نبوية. أهي في الحارة كنا نقول لها تعالي يا نبوية روحي يا نبوية.

ولكن هذا لا يكفي. ولابد من كتابة اسمها كاملاً، فتوسلتُ إلى النسوة أن يساعدنني في حملها على النطق دقيقة واحدة. فتكاثرن عليها ورفعن رأسها الذي لا يريد إلا أن يقع على صدرها وهمسن في أذنها يرجونها الكلام وإجابة البك النيابة. وبعد ذلك بالتمام حركت المصابة شفتيها فاستبشرت النسوة وشجعنها رابتات على كتفيها:

– أيوه.. أيوه، ردي علينا يا حبيبتي!

فأسرعت أصيح قرب أذنها وقد تصبب العرق مني:

– اسمك؟ اسمك إيه بقى؟..

فـأَنَّت وزامت وقـالت في صوت خـافت متـهدج:

– اسمـي.. نبويـة.

فكدت أشق ثيـابي:

– مفـهوم! نبوية! كويس خـالص! لكن نبوية إيه؟ اسم «أبوك» إيه؟ أنـا في عرض «أبوك»! نبويـة إيه؟

ولكنـي أخـاطب وأتوسل إلى شبه جثة. فقد انحدر رأسها وسقط على صدرها من جديد. ولزمَت الصمت إلا من ذلك الأنين الخافت. وبلغ مني اليأس والضيق، فصحت في النسوة صيحة داوية فأسرعن وأنهضنها مرة أخرى ومسحن صدغيها بالماء البارد وناجينها بالكلام العذب إلى أن ظفرنا آخر الأمر باسمها كاملاً. ولكن بقي في الاستمارة عشرة أسئلة! وإذا كان ذكر الاسم على بساطته قد اقتضى هذا المجهود، فكيف بالباقي؟ خصوصاً السؤال الأخير. بيان الفترة بين تعاطي المادة المشتبه فيها وأول ظهور الأعراض؟ مع وجوب ذكر تواريخ واضحة وساعات معينة كما تقول الملحوظة!! أي أن هذه المرأة التي لم تخرج اسمها من بين فكيها إلا بعد أن كادت تخرج أرواحنا ستقول لنا عن الساعة والدقيقة بالضبط التي لاحظت فيها ظهور الأعراض أول ما لاحظت؟ شيء جميل، أنا مجنون أسأل هذه الأسئلة؟ أليس في عيني نظر؟ ماذا تظن بعقلي هؤلاء النسوة إذا خالجني طمع في أن أتلقى من هذه الطريحة جواباً بالساعة والدقيقة عن الأعراض والفترة بين تعاطي المادة وظهور أول.. إلى آخر هذا الكلام المطبوع على استمارة صنعت فوق مكاتب العاصمة في صفاء وهدوء بال، بعيداً عن مناظر القيء والإسهال!! وأومأتُ إلى الكاتب أن «أقفل المحضر» وأفهمته أن المصابة لم يمكن استجوابها، واكتفينا بأخذ «عينات» القيء والبراز وقص أظافر وجيوب المتهم. ثم عدنا إلى دار النيابة حيث ارتميت على مقعدي تَعِباً.

أغمضت عيني قليلاً، ثم فتحتها على صوت الباب يفتح وقد دخل منه

مساعدي أصفر الوجه. فأفقت من خمولي في الحال وابتدرته:

– ما لك؟

– التشريح.

– آخ حضرت العملية، والنتيجة؟

– النتيجة أني أنا...

وجلس على كرسي قريب، فحدقت بنظري مليًّا في وجهه. ففهمت كل شيء. إن هذا الشاب قد حدث له ما حدث لي يوم حضرت لأول مرة تشريح جثة آدمية. هذا الشاب الرقيق الذي خرج بالأمس من بين الكتب، تلك الكتب التي أرتنا وأفهمتنا أن الإنسان شيء عظيم، إنه هو محور الكون، وأنه المصطفى الملحوظ دون بقية المخلوقات بعناية الخالق الأعظم، وأنه الكائن النوراني الروحاني الذي سوف يبعث، هذا الإنسان لم يتح لكثير من الناس أن يطلعوا على تركيبه من الداخل، فإذا ما اطلع أحدنا على ذلك سرَت في نفسه صدمة يختلف تفسيرها باختلاف مزاج الشخص وطبيعته وثقافته، وإني لن أنسى أبداً يوم وقفت للمرة الأولى على رأس جثة رجل أصيب في دماغه بعيار ناري أطلق عن قرب فكسر الجمجمة وهتك الجدار الأيمن للأذن حتى برز جزء من جوهر المخ، وحضر الطبيب للتشريح، فقمت معه أشاهد ما يفعل، وغادرنا الغيط الذي وقعت فيه الحادثة، وانتقلنا إلى دار المجني عليه، وهي دار قروية متواضعة، وجيء بالقتيل يحمله أهله وقد لفوه في لحاف جديد ومن حوله النسوة بعويلهن وصياحهن وطينهن يلطخن به وجوههن، وكان معي مأمور نشيط أمر رجاله بإخلاء المكان إلا من رجال الحفظ والطبيب وحلاق الصحة ومعاونيه، وأتوا «بطشتين» كبيرين وضعوهما تحت «دكة» عريضة من الخشب في صحن الدار، ووضع الحلاق ومعاونوه الجثة فوق «الدّكة» وخلعوا ملابس القتيل، وكانت جديدة احتفالاً بعيد الفطر، إذ وقعت الجريمة في اليوم الأخير من شهر رمضان، كأنما أراد القاتل أن يسرع خشية

أن يحل العيد وغريمه على قيد الحياة، وحرصاً منه على أن تكون هدية العيد تلك الرصاصة في رأس القتيل، ورغبة منه في أن تتغير نغمة أصوات العيد وأناشيده المتصاعدة من جوف هذه الدار، وأعمل الطبيب المشرط حالاً في رأس القتيل وهو يملي على الكاتب:

– ونزعنا الفروة (يقصد فروة الرأس طبعاً).

وعندئذ علا صياح النسوة، وكنَّ قد تسللن وتسلقن سطح الدار والأسطح المجاورة «المعرَّشة» بحطب القطن والذرة، وسمعت بين أصواتهن المختلطة صوتاً رفيعاً حارًّا مؤثراً أوجع قلبي يصيح:

– يا شجرة و«مضللانا» يا بويا!..

وتلاه صوت آخر في مثل رفعه ولهيبه وقد امتزج بنشيج وبكاء مر:

– ياللي كنت خارج بسحورك في بطنك يابه.

وتم نزع الفروة، ووضع الطبيب أصبعه في فتحة الجرح يسبر غوره ويعرف حدوده، وأملى الكاتب:

– جرح ناري طوله أربعة سنتيمترات..

وحاول أن يعثر بأصبعه على الرصاصة فلم يستطع.

فتناول منشاراً من المعدن من حقيبته وجعل ينشر الجمجمة من الجبهة ليفتح الرأس فلم ينجح في نشرها لصلابتها، فأخذ مطرقة صغيرة من بين أدواته وطفق يدق بها فوق المنشار كأنما يدق على علبة «سردين» وسمعَت إحدى العجائز ذلك ورأت من فجوة السطح ذلك الدق و«الهبد» في رأس رجل العائلة وعميد الدار فوضعت كفها على خذها وقالت متنهدة:

– اسم الله عليه!

هذه الكلمة هزتني. ووجدت لوقعها غرابة. إن تلك العجوز ما زالت تعتقد أن رجلهن هو رجلهن بشخصيته وآدميته، أما أنا فمنذ لحظة قد بدأت أشك في ذلك.

وتم نزع الغطاء أو «القرَّاعة» وظهر من تحته الغلاف الرقيق الذي فوق المخ مباشرة. فمزقه الطبيب بمشرطه، وجعل يفحص ما حول الجرح وهو يملي:

– نزيف دموي شديد بأنسجة المخ..

وجعل يبحث بأصبعه عن الرصاصة فلم يجد شيئاً. واستمر في البحث حول تلك المنطقة القريبة من الجرح فلم يعثر للرصاصة على أثر. أين ذهبت إذن؟ وليس هنالك من فتحة أخرى يظن أن المقذوف خرج منها. ولم ييأس الطبيب. وقال لي باسماً: إن المقذوف الناري يتخذ أحياناً خطوط سير عجيبة في جسم المصاب وأحياناً تدخل الرصاصة من البطن فلا يعثر عليها إلا في الفخذ. قد يكون هذا معقولاً. ولكن رصاصة تدخل من الرأس تستخرج من القدم؟ هذا شغل «حواة» ولا أصدق أن الرصاصة لها كل هذه المقدرة. واستاء الطبيب أخيراً فصاح:

– وعلى إيه؟ آدي مخ الراجل بحاله..

وأخرج بكلتا يديه كل ما في الجمجمة من مخ حتى أخلاها فأصبحت مثل «السلطانية» النظيفة، وقسَّم هذا المخ أقساماً أربعة أعطى كلا من معاونيه قسماً وكلفهم أن يبحثوا عن المقذوف بحثاً جيداً، فجعلوا «يلغوصون» بأصابعهم في هذه المادة التي يُعزَى إليها كل نبوغ الإنسانية، حتى صيَّروها شبه سائلة كالمهلبية؟

هذا هو مخ الإنسان!

قلت ذلك همسا لنفسي، وقد بدأ الروع الذي أخذني أول الأمر يزول عني شيئاً فشيئاً. وتصلبت أعصابي وهمد إحساسي وتيقظ في نفسي حب استطلاع ورغبة في أن يفتح أمامي كل هذا الجسم المسجى لأنظر فيه. وما دمت قد رأيت المخ هكذا فلنر القلب ولنر الكبد ولنر الأحشاء، لم يعد هذا الرجل في نظري رجلاً، إنما هو ساعة حائط كبيرة ممدد أريدُ أن أفتحها لأشاهد

آلاتها وتروسها وعجلاتها وأجراسها.

ولم يجد الرجال شيئاً كذلك بعد البحث الطويل. إنه لَسُوء حظ كما قال الطبيب، ولكنا مطالبون بالنتيجة على أية حال. ها هو ذا القتيل ولابد أن تكون الرصاصة فيه. وشمر الطبيب عن ساعد الجد والضيق وعمل المشرط في ذلك الجسد، وأنا من خلفه أشاهد وأقول:

– اقطع! اشرُط!.

واخذتني حمى غريبة وفقدت كل شعور إنساني فجعلتُ أقول للطبيب: أرني رئتيه، أرني أمعاءه، أرني الطحال.. إلخ إلخ. ولم يتردد الطبيب. وشرط الصدر حتى أسفل البطن وأخرج القلب ثم الأمعاء وأملى:

– وجدنا القلب سليماً والأمعاء بها طعام مهضوم، ولم نعثر مع كل ذلك على شيء. ففكرنا مليًّاً. فاتضح لنا أن الرصاصة قد تكون سقطت من نفس الجرح لاتساعه وثقلها وسقطت بسقوطه على الأرض.

وفرغنا من العمل وانصرفنا وأنا أعجب لما حدث في نفسي من انقلاب. أنا الرقيق الحس أرى الجَزْر والتقطيع، بل وآمر به ولا أرتعد! ثم أيّ خيبة أمل! لقد كنت أحسب الإنسان أعظم من ذلك! كلا، لا ينبغي أن نرى أنفسنا من الداخل. إن صورة ما رأيت لا يمكن أن تزول من مخيلتي. ولا ريب أن تلك المناظر قد أحدثت في نفس مساعدي أحداثاً. وأردت أن أسأله في ذلك. ولكن الباب فتح وظهر حاجبي ومعه إشارة تليفونية فقلت:

– اللهم خيراً!

وتناولت الإشارة وما كدت ألقي عليها نظرة حتى صحت:

– البنت ريم؟!..

فأسرع مساعدي متلهفاً:

– ما لها؟

– وجدوا جثتها في الريَّاح قِبلي البلد؟

– وماتت؟

– قلت لك وجدوا جثتها، خذ اقرأ الإشارة!

فأخذ المساعد الورقة وجعل يقرأ بعينيه حتى وصل إلى آخر عبارة وهي «ويحتمل أن سبب الوفاة اسفكسيا الغرق»، وقفت عيناه عليها لحظة من التأثر، وكنت أنا أشد منه حزناً على انطفاء حياة هذا الشيء الجميل بهذه السرعة.

وأطرقت قليلاً أفكر في سوء حظنا، لا من حيث العمل، ولا لأن ريم مفتاح من مفاتيح القضية، بل لأنها كانت صورة بديعة هزت نفوسنا جميعاً عاقلنا ومجنوننا، ومخلوقاً حلوا منحنا أُوَيقات حلوة ولحظات مشرقة، ونسيماً عليلاً هب على صحراء حياتنا العاطفية المجدبة في هذا الريف القفر.

واستيقظت من تفكيري، ورفعت رأسي ومددت يدي إلى مساعدي أسترد الإشارة وأخط عليها العبارة المألوفة: «نأمر بتشريح الجثة»، وفجأة تنبهت إلى فظاعة هذه العبارة، نعم لأول مرة أجدها فظيعة، طالما شرحنا جثثاً، فليكن، وإني لعلى استعداد لتشريح نصف أهالي هذه البلدة، أما هذه الفتاة.. أما هذا الجمال فحرام أن نمزقه ونرى ما بداخله، ولمح مساعدي نَص الإشارة بنظره الحاد فصاح:

– أظن ناوي تقول لي احضر التشريح!

– ومين غير حضرتك؟!

– مستحيل، أنا أولا كفاية عليَّ تشريح الصبح! حرام! أقعد طول النهار أشاهد فتح جثث! أنا مساعد نيابة مش مساعد حانوتي! ثانياً البنت دي بنوع خصوصي..

فتأملت قوله، وعذرته، وأطرقت لحظة ثم قلت:

– لك حق، ريم بنوع خصوصي! من له قلب يحضر.. أنا لو دفعوا لي عشرين جنيهاً..! هات الإشارة نشطب على التشريح ونأمر بالدفن ونخلص..

والواقع أن في أيدينا أن نفعل ذلك بدون أن نتعرض للنقد والمسؤولية، فالطبيب الذي كشف عن الجثة عقب استخراجها من النهر قرر أن الوفاة من اسفكسيا الغرق، أي أنه لم يجد آثاراً مشتبهاً فيها تدل على أن الوفاة جنائية، فإجراء التشريح في هذه الحالة دقة لا مبرر لها، آه لرجال الفقه والقانون أصحاب الغرض! إنهم يستطيعون أن يتصرفوا على كل وجه تصرفاً منطقيا مقبولاً! وما كدت أمسك بالقلم لأشطب الأمر السابق حتى سمعنا صياحاً في الطريق فقمنا إلى النافذة، فإذا بنا نرى الشيخ عصفور يجري في الطريق، عاري الرأس بدون عوده الأخضر، والصبّية والغِلمان وجمع من الأهالي خلفه وهو يصيح كالمجنون:

ورمش عينها يا ناس
يفرش على الميَّه
واحدة بياض شفتشي
والتانيه بلطيه
والتالتة من بدعها
غرَّقها في الميَّه

وصار يردد ذلك بصوت تارة كالعويل وتارة كالزئير، وتارة في حركات كحركات خطباء المساجد وهو يمشي أحياناً ويرقص أحياناً ويجري في كل جهة حتى اختفى عن أنظارنا، فلبثنا عند النافذة صامتين مأخوذين، ثم انتبهنا بعد لحظة وعدنا حيث كنا من الحجرة ونحن نقول كمن يخاطب نفسه:

– مسكين!

وعدت إلى الإشارة، وأمسكت بالقلم من جديد، ولكن الشك والقلق خالجاني..

– سمعته لما قال: «غرَّقها في المَيَّه»! من اللي غرَّقها؟!

فقال المساعد:

دي «هلوسة» مجانين! حانفتح تحقيق بناء على «خطرفة» رجل مخبول في الشارع؟! أظن الأحسن ندفن البنت وننتهي!

فمحا قوله ترددي، وضغطت على القلم ضغط العزم والاقتناع وخططت أمر الدفن، وأنا أقول:

– صدقت، أنا حتى نفسي انصدت عن القضية وأصحابها!!

22 أكتوبر..

استيقظت اليوم متأخرا. فقد سهرت أكثر الليل في التهام الأوراق المتأخرة. إذ بعد أسبوع تبدأ السنة القضائية الجديدة. ومعنى هذا أنه لا ينبغي أن تبقى عندي قضية واحدة لم يتم التصرف فيها من قضايا العام المنصرم. ومعنى هذا أيضاً أنه يجب أن أحبس نفسي طول هذا الأسبوع حتى أنظر في المتأخر من أكداس «الشكاوى» التي فاضت بها خزائني.. آه من هذه الشكاوى! إنها أكثر عدداً من ذلك «البَق» الزاحف جيوشاً على حائط دار النيابة الرطب المتهدم! يخيل إليَّ أن الشكاوى لا تنزل على رأسي كالوابل إلا أيام الأسواق، كأن الفلاح إنما يخرج إليَّ سوق الخميس من كل أسبوع يبيع كيلة ذرة ليشتري قليلاً من السكر والشاي ويملأ زجاجة «السيرج» ويستكتب أحد الكتبة العمومية «بلاغاً» أو «عريضة» ضد مأذون الناحية أو العمدة أو وكيل شيخ الخفر. ولعل هذا أصبح بنداً ثابتاً في ميزانية كل خارج إلى السوق من هؤلاء الفلاحين. لست أدري لذلك من سبب. أهو الظلم حقاً! أم هو داء الشكوى استوطن دم الفلاح على مدى أحقاب من الجور

مرت به حقيقة! على أي حال، ما ذنبي أنا أجرع ما في هذه الأوراق من سخف. يظهر أن حضور جلسات المحاكم وضبط قضايا التلبس في النهار، وقيد وارد الجُنَح والمخالفات في المساء، والانتقال لتحقيق وقائع الجنايات بالليل، كل هذا لا يكفي وكيل النيابة في الأرياف، فهو ما زال يجد وقتاً يتنفس فيه.. فلتسد عليه إذن مسالك الهواء بأكوام الأوراق التافهة الآتية من المركز باسم «الشكاوى» و«العوارض» و«الأحوال». ومعنى هذا أيضاً أني أنا الشخص الضعيف الجسم والبنية الدقيق الحس والشعور الذي يتوق إلى نصف الساعة يفرغ فيها إلى مطالعة كتاب جميل، ينبغي لي أن أقرأ أيضاً ما جرى بين «ست الدار» وجارتها «قطايف» من تبادل «الردح» والسبّاب وما تلقاه المركز من بلاغات فقد الأختام و«محاضر» البحث الجاري عن جحش هرب من أمام الباب، وإصابة قدم طفل داس على قطعة زجاج، وسقوط فرع جميزة على رأس كبش الحاج هباب! إني والله لأعذر ذلك النائب في الصعيد الذي قيل إنه كان يعبر النيل في قارب للوصول إلى مقر عمله وكان معه حمل من هذه «الشكاوى» حار في أمره فأومأ إلى صاحب القارب، فمال بقاربه على أحد جنبيه ميلاً أسقط «الشكاوى» في الماء! ويزيد في بلائي أكثر من هذا إلحاح عبد المقصود أفندي رئيس القلم الجنائي. فهو المنوط بإرسال «كشوف» القضايا في مواعيدها إلى النائب العام ووزارة الحقانية. هذا الرجل لا أرى له عملاً عندي غير التنقل بين الحجرات حاملاً في يده ورقة يأمر هنا وينهى هناك. حتى عملية «التنفيذ» التي من نصيبه قد ألقى بعبئها على غيره من مرؤوسيه واكتفى هو «بمهمة» الصياح في الكتبة والحجَّاب. وهو أول من ينصرف من الموظفين واضعاً على طرف أنفه عويناته الذهبية، يرسل من خلالها نظرات صريحة إلى المجتمعين في أروقة دار النيابة من وكلاء المحامين وأرباب القضايا كأنما يستحثهم على الوقوف له. ولا حديث عنده إلا ذكر علاقاته وصلاته بكبار الموظفين، يقول ذلك في زهو وانتفاخ.

ولطالما طلبت إليه حساباً عن عمله فيجيبني دائماً:

– أنا ولله الحمد لا أميل إلى الأبهة ولا إلى الفخفخة!

تراني سألته في ذلك؟ لم يحدث قط: يخيل إليَّ أن مِن الناس مَنْ يلقي الكلمة يدفع بها عن نفسه فإذا فيها الاتهام الصارخ ولعل كلا منهم يحمل في طيات كلامه دليل إجرامه، كما يحمل المريض في دمه جراثيم دائه!!

لابد إذن من العمل المضنى حتى تختم السنة القضائية على خير، وقد أمرت بإغلاق أبوابي عليَّ حتى أنفرد لهذه الملفات أتصرف فيها باليمين وبالشمال، ومضيت أعمل وأنا أقول: «خد من التل يختل»! ولكن الذي وضع هذا المثل كان يقصد بالتل النقود والذهب. أما أوراقي «الشكاوى» فهي تل دائم النمو، لا يختل ولا يزول.

وهل تنقطع للإنسان «شكوى» على هذه الأرض ما دام هو إنساناً؟! ونسيت نفسي في العمل، فلم أسمع إلا طرقة خفيفة قيل إنها وقعت على الباب. ولكني رأيت رجلاً أنيقاً في وسط الحجرة يبتسم لي وخلفه حاجب يحمل حقيبتين. عجباً! هذا زميلي وكيل نيابة طنطا! ماذا أتى به؟ وما هذه الحقائب؟ ولم يترك لي زميلي وقتاً للتساؤل. فقد أشار إلى حاجبه أن يضع الحقيبتين على الأرض وينصرف. وما إن صرنا وحدنا حتى جثا على قدميه أمامي في حركة تمثيلية وقال:

– أنا وقعت من السما وأنت تلقفتني!

فنظرت إلى يدي الهزيلتين ثم إلى جسمه الممتلئ:

– أنا تلقفتك؟ ونزلت «صاغ» سليم!

– اسمع! الموضوع جد. أنت رجل معروف بيننا جميعاً أنك صاحب همة ومروءة و..

هنا لعب في «عبّي الفار» وأدركت أن هذا الزميل قد ترك مقر عمله طنطا في هذا الوقت العصيب وقت مولد السيد البدوي وما يتبعه من ازدحام المدينة

بأفواج الوافدين وكثرة الحوادث والوقائع التي تصحب عادة كل مولد وكل ازدحام. ترك ذلك وأتى إليَّ يطلب ولا شك إلى همتي ومروءتي معونة كبرى! ترى ما نوع هذه المعونة؟ وخامرني قلق، وأردت أن أعرف سريعاً ما يريد مني حتى أطمئن فقلت:

– أنا في خدمتك!

فما كاد يسمع هذه الكلمة المشجعة حتى قام إلى رأسي يقبله ويقول في صوت كصوت «الشحاذين»:

ربنا يخليك ويبقيك ويمد في عمرك و..

ثم تركني وأسرع إلى حقائبه وقال لي:

– تسمح؟

فقلت له وقد حمدت له في نفسي ذوقه ومراعاته اللياقة في الزيارة:

– والله ما كان فيه لزوم تكلف نفسك هدية.

وفتح إحدى الحقيبتين وأنا أتوقع أن أرى فيها على الأقل حمصا من حمص السيد البدوي وفي الأخرى حلاوة المولد.. ولكنه أخرج أحمالاً من أوراق «الشكاوى» ووضعها على مكتبي وهو يقول في تواضع:

– هديتنا على قدنا.

فنظرت إلى الأوراق في روع وتمتمت:

– أعوذ بالله!

وجعل هذا الضيف يخرج الأكداس تِلوَ الأكداس وهو يقول:

– النبي قبل الهدية!

فلم أجد ما أقول لهذا الإنسان الذي يصر على أن يسمي هذه «السخرة» هدية، ولعنت في نفسي قولهم إن «النيابة لا تتجزأ» هذا المبدأ الذي نسير عليه، وهذا النظام الذي يفرض التضامن بين كل أعضاء النيابة، ويعطي الحق لوكيل نيابة أسوان أن يتصرف في قضايا وكيل نيابة الإسكندرية دون

أن يبطل تصرفه اختصاص مكاني أو زمني. لعنت ذلك ولعنت الضيف ولعنت نفسي إذ إن لي حقيقة من سوء حظي صيتاً بين زملائي.. بأني من أصحاب الهمم خصوصاً في الشكاوى الإدارية وسرعة التصرف فيها. وقد نقل عني الكثير من إخواني أعضاء النيابة طريقتي في قراءة الشكاوى. فهم يقولون إني أقرأ الشكوى من آخرها لا من أولها وهذا صحيح فأنا لست مجنونا حتى أقرأ الأوراق من أولها كما يقرأ الناس والعقلاء! لو فعلت ذلك لما انتهيت. ولكني أضرب صفحا عن الديباجة وما فيها من «أنتم يا ملاذ العدل ويا نصير الحق ويا مبيد دولة الظلم ويا ماحق.. إلخ إلخ»، وأنظر في الحال إلى السطر الأخير ففيه عادة لب الموضوع. وهذا اللب أيضاً قلما أجده لباً، وكثيراً ما يجرى فيه قلمي بالكنس، أي «بالحفظ» في سرعة وجرأة وهمة أطمعت فيَّ الزملاء الموروطين الغارقين في بحار هذا «الواغش»، ولكني اليوم آخر من يعين الناس. إني أنا نفسي في حاجة إلى المعونة. وإن هبوط هذا «الضيف» عليَّ كما تهبط المصيبة لأمر شاق على النفس. ولم أتمالك، وتجهمت للشكاوى الخارجة من الحقائب وقلت في سخرية المغيظ:

– يا سلام، يا سلام على حمص الموالد! حاجة تشرح القلب صحيح.

فقال الضيف وهو ينفض يديه من آخر ملف:

– كان غرضي أجيب لك شوية حلاوة..

فقاطعته صائحاً مرتاعاً:

– من الصنف ده؟!

فاستمر في قوله باسماً:

– لكن والله غاب عن فكري في آخر لحظة..

– الحمد لله جات سليمة!..

فضحك الزميل المحترم. وجاءت القهوة فشرب هنيئاً ثم قام فدار دورة في الحجرة واقترب من النافذة كعادته التي أعرفها عنه وأطلق بصره فيما

حولنا من منازل قليلة وغمز بعينه.

– في البيت ده بنت حلوة!

فبادرت إليه وجذبته من ذراعيه بعيداً وأنا أقول له:

– كنت فاكرك عقلت وبطلت الهلس!

فقال باسماً وهو يعود إلى الحجرة ويجلس على مقعد:

– أبطل ازاي، «البصبصة» في دمي!

وجعل يذكرني بأيام «ديروط» حيث كنا نعمل معاً في نيابتها، وطلب مني سيجارة طفق يدخنها ويقول:

– فاكر في ديروط لما كنا نقف في الشبابيك نبحث بعيننا فوق الأسطح عن قميص حريمي مشغول «بالتنتنة» لأجل بس نطمئن على وجود صنف النسوان في البلد!

الواقع أنها بلاد قريبة من الفطرة والوحشية! هذا الوجه القبلي من مصر شيء مخيف لساكن الوجه البحري، إن المرأة هناك شبح لا يُرَى ولا ينبغي أن يرى. وهي مخلوق جاف لا فرق بينها هناك وبين الرجل. كلاهما شيء لا أثر للرقة فيه. وكلاهما في الجسم والطبع والروح كتلك الأرض السوداء التي يعيشان عليها وقد جف عنها النيل في زمن التحاريق! آدميون قد جف عن تركيبهم ذلك الماء الذي فيه سر امتياز الآدميين.

ونفخ صاحبي الدخان من أنفه وفمه ثم استطرد:

– لعنة الله على دي بلد! أنا أراهن أن تسعة أعشار أهالي ديروط لو تكشف رؤوسهم تلقى معمول لهم جميعاً عمليات «طربنة» من ضربهم في بعض بالنبابيت.

فصادقت برأسي على قوله ثم زدت:

– وأبنوب؟

– ألعن!

قالها في إشارة من يده أضحكتني وذكرتني بشيء قرأته عن هذه البلدة: إحصائية صدرت في أوروبا وأميركا (لست أذكر على التحقيق) عرضها بيان الإجرام في العالم، ورد فيها أن «شيكاجو» أكثر بلاد الأرض في عدد جرائمها، وتليها مباشرة «أبنوب» وبعدهما بقية مدن العالم الشهيرة. وقد حسبت وقتئذ أن «أبنوب» هذه مدينة في أميركا، لولا ملحوظة في هامش الإحصائية ذكرت أنها من بلاد الوجه القبلي بالقُطر المصري. دهشت عند ذلك أن تكون لهذه البلدة الصغيرة هذا المقام العظيم بين مدن الدنيا الشهيرة، وإن كان هذا المقام في عالم الإجرام!! «شيكاجو» و«أبنوب» قطباً الغريزة السفلى على هذه الأرض. الأولى إجرام الحضارة! والثانية إجرام البداوة! كل له طابعه ومميزاته: إجرام الحضارة قد ارتدى هو أيضاً ثوب الحضارة بأسلحتها وأغراضها وأسبابها! هنالك الجريمة المتحضرة تخرج في سياراتها المصفحة حاملة «المسدسات» و«المتراليوزات» و«المفرقعات» لتهجم على أضخم «البنوك» وبيوت المال ثم تعود إلى مكمنها بثروات طائلة من الجنيهات!.. وهنا الجريمة الفطرية تخرج متدثرة في عباءتها حاملة هراوتها أو فأسها أو بندقيتها لتسفك دم رجل ضعيف انتقاماً لعِرض أهِين في نظر التقاليد والعادات. هنالك الثروة والمال، وهنا التقاليد والعادات. هذا هو الفرق بين الحضارة والفطرة بين ما يشغل بال الرجل المتحضر وما يشغل بال الرجل المتأخر! نعم، إن الشر هو دائماً الشر. ولكن الشر الناتج عن سبب كبير لأجدر بالتقدير من شر نشأ عن سبب تافه حقير! إن الحضارة العظيمة لا تزيل الشر ولا تمحو الجريمة، ولكنها توجِد الشر العظيم والجريمة العظيمة!

والتفتُّ إلى زميلي المطرق وقلت له:

– أنا روحي طلعت خلاص! زهقت من حاجة اسمها أرياف! زهقت من أصناف «البلد»!

– ازهق على كيفك!

– أنا اشتقت لمصر! نسيت شكل عاصمة بلادي، أحب يا ناس أغير نوع الجريمة، وأشتغل مع مجرمين لابسين سترة وبنطلون!

– حركة التنقلات في نوفمبر.

– أظن عليَّ الدور أنتقل لمصر.

– النقل لمصر مش بالدور يا حبيبي عندك واسطة؟

– لأ.

– حاتعيش وتموت في الأرياف.

– وإخواننا اللي قاعدين متمتعين في مصر بقى لهم سنين؟

– تشملهم كذلك حركة التنقلات، لكن على الوجه المفهوم وعلى الطريقة المعتادة: وكيل نيابة الموسكي ينقل إلى نيابة الأزبكية. ووكيل شبرا إلى نيابة الخليفة. ووكيل السيدة زينب إلى كلية مصر، يعني تنقلات مع مراعاة عدم خروجهم من «الجنة» أي العاصمة. ومع ذلك تجد حضراتهم غير راضيين، لأن بعضهم يقول لك: «شبرا! يا سلام شبرا بعيدة جداً جداً عن بيتي في الزمالك»، والآخر يقول لك: «ازاي أروح نيابة السيدة؟! حي ديمقراطي قوي!!»، أما حضرتك وحضرتي، فأنت إن شاء **الله** من هنا إلى «الفشن» من غير كلام. وأنا من طنطا إلى «طما» أو «منفلوط» من غير كلام. وإن فتح واحد منا فمه بالشكوى أو الاحتجاج هبُّوا فينا: «إيه دلع أعضاء النيابة ده! تفضلوا روحوا نياباتكم بلا دلع!!».

فأطرقت طويلاً في حزن وغم، ولم أجد في يدي غير التمسك بالصبر حتى لا أضيف على بلائي بلاء وقلت متنهدا:

– أمرنا **الله**! لنا رب! لكن ده شيء يصد النفس عن الشغل..!

لفظت ذلك لما وقعت عيني على أكوام الأوراق التي لابد من إنجاز التصرف فيها فأحسست أن رغبتي في العمل قد فترت. فقال صديقي:

– الشغل.. هو آخر شيء يهم أسيادنا الرؤساء الكبار! المحسوبية أولاً

ومصلحة العمل أخيراً، وكون نفس حضرتك تنسد أو تنفتح للشغل مسألة غير مفهومة بالمرة ولا مهمة بالمرة عند أسيادنا الكبار!

ونظر الزميل في ساعته ثم نهض سريعاً مستأذناً فأمسكت به في لهفة، ففي وجودنا معاً وتقليب ذكرياتنا بعض الراحة والعزاء:

– اقعد! أنت رايح تتغدى عندي النهارده!

– مستحيل! نيابتي فاضية ووقت مولد أرجوك تسامحني..

وشكر لي ومد إليَّ يده وودعني بسرعة وهو يقول مشيراً إلى ملفات الشكاوى التي جاء بها:

– على الله نفْسك تنفتح على الكَمْ ورقة الهدية.. ويبقى لك عندي المرة الجاية الحلاوة.. حلاوة بصحيح: حمصية وسمسمية وبالجوز واللوز والفستق و..

– طيب رُوح بقى، ريقي جرى مقدماً..

وشيعته باسماً إلى باب حجرتي حتى اختفى فرجعت إلى ما كنت فيه ولكن في شيء من التثاقل والضيق والكآبة، وألقيت نظرة أخرى على «الشكاوى» ورأيت أن أمضي في عملي وأن لا أضيع الوقت في تبرم لا فائدة منه، لا يشعر به أحد ولا يراه أحد غير تلك الحيطان الأربعة التي تحبس روحي وأنفاسي وأمسكت بالقلم، وتناولت من الكوم ملفاً وفتحته. وقرأت: «يا ملاذ العدل..» فما تمالكت أن ضحكت بصوت مرتفع ضحكة مُرَّة.. أنا ملاذ العدل؟ أين هو العدل؟ إني لا أعرفه ولم أره. لأن أحدا لم يعطنيه! إنهم يطلبون إليَّ أن أنظر في شكاوى الناس ولا يتنازلون هم إلى النظر في شكواي وشكوى المئات من زملائي! وأجريت القلم في الأوراق أوسعها «حفظاً»! ودخل عليَّ عبد المقصود أفندي يحمل ملفات ضخمة فقلت مرتاعاً:

– إيه كل ده؟

– الجُنَح الباقية على التصرف..

ثم التفت خلفه ونادى الحاجب:

– هات الجنايات يا جدع!

ونظر إليَّ قائلاً:

– حانعمل إيه في الجنايات الباقية..؟

ووضع أمامي ملفات قرأت على غلاف أحدها: قضية «قمر الدولة علوان». فتذكرت أن الفاعل في هذه القضية لم يُعرف.. لم يُعرف، طبعاً لم يُعرف ولن يُعرف. وكيف يراد متهما في قضية غامضة كهذه القضية وكل من المأمور والبوليس «ملبوخ» من رأسه إلى قدمه في تزييف الانتخاب، وأنا «ملبوخ» في قراءة شكاوى وجنح ومخالفات وحضور جلسات! لو أن لدينا «بوليس سري» على النظام الحديث، وقاضي «تحقيق» ينقطع لقضايا الجنايات كما هو الحال في أوروبا والعالم المتحضر! إنهم هناك ينظرون إلى أرواح الناس بعين الجد. أما هنا فلا أحد يأخذ ذلك على سبيل الجد. وإن الأموال لتنفق هنا بسخاء في التافه من الأمور، وأما إذا طلبت لإقامة العدل أو تحسين حال الشعب فإنها تصبح عزيزة شحيحة تقبض عليها الأكف المرتجفة كأنها ستلقى في البحر هباء. ذلك أن «العدل» و«الشعب»..إلخ إلخ. كلمات لم يزل معناها غامضاً عن العقول في هذا البلد. كلمات كل مهمتها أن تكتب على الورق وتلقى في الخطب كغيرها من الألفاظ والصفات المعنوية التي لا يحس لها وجود حقيقي، فلماذا ينتظر مني أنا أن آخذ على سبيل الجد روح «سي قمر الدولة علوان»؟! إن هذا المجني عليه قد مات وانتهى مثله مثل غيره من مئات المجني عليهم في هذا المركز والمراكز الأخرى في القطر، ذهب دمهم جميعاً أرخص من المداد الذي حبرت به محاضر قضاياهم، وانتهى ذكرهم عندنا «رسمياً» بذلك الإجراء الأخير البسيط: «تحفظ القضية لعدم معرفة الفاعل ويكتب للمركز باستمرار البحث والتحري» فيجيب المركز بعبارة مألوفة محفوظة يحررها كاتب الضبط في حركة آلية وهو يقضم

«شرش جزر»: «جارين البحث والتحري..» وهي كلمة الوداع التي تقبر بها القضية نهائيا. لقد كان في قضية قمر الدولة «قمر» مضيء ميز في أعيننا هذه القضية عن غيرها وجب إلينا العمل والجهد في سبيلها. ولقد اختفى هذا القمر إلى الأبد وترك القضية ومحققيها في الظلام! بل إنه بذهابه قد زال عنها ذلك الاعتبار الخاص فأصبحت قضية عادية كمئات القضايا التي لا يعنينا من أمر أشخاصها شيء. وللقضية، أي لذلك «الملف» المادي من الورق المكتوب «شخصية» قائمة بذاتها في نظر رجال العدل. وإن ما يعني جهاتنا الرئيسية هو ذلك «الملف» وسرعة التصرف فيه. وإنه لن يعيبنا شيء إذا حفظنا القضية، ولكن العيب كل العيب أن تظل هذه القضية باقية قيد التصرف ويثبت ذلك في «الكشوف» المرسلة إلى النائب العام والوزارة آخر السنة القضائية. أيّ عار عند ذلك وأيّ إهمال ينسبان إلى وكيل النيابةّ؟ وأيّ مكاتبات مستعجلة تسقط على رأسه من جميع الجهات عن سبب بقاء هذه القضية قيد التصرف؟ فإذا أجاب بأنه لم يستوف بعد أبحاثه فيها للوصول إلى معرفة الفاعل وأنه مواصل بحثه ومصر عليه لا يعتبر ذلك عذراً، وسفهه زملاؤه وحسبوه «غشيماً» ونصحوه بأن «يحفظ» القضية «مؤقتاً» حتى تعتبر «متصرفاً فيها»، فالجهات العليا يهمها ويطمئنها «التصرف» في القضايا، أي «نفض» اليد والفراغ منها على أي صورة وعلى أي وجه، حتى تستطيع تلك الجهات أن تدون في الإحصائيات: «وقع في القُطر هذا العام عدد كذا جنايات تم التصرف في عدد كذا منها.. إلخ». وكلما كان عدد القضايا التي تم التصرف كبيراً كان ذلك دليلاً ناصعاً على نشاط رجال العدل وغيرتهم على استتباب الأمن وحسن سير الدولاب الحكومي!!

وأشار عبد المقصود أفندي إلى الملفات وقال:

– قبل كل شيء يا سعادة البك تصرف لنا في الكم جناية الباقيين لأجل أسدد كشف الجنايات وأصدره للباشا النائب والوزارة!..

– بس كده؟ حاضر!

وغمست القلم في المداد وتناولت القضية الأولى وهي قضية «قمر الدولة»:

– طالب تصرف، خد تصرف!

ثم كتبت في ذيل المحضر الإشارة المعهودة:

«تحفظ القضية لعدم معرفة الفاعل.. إلخ إلخ». وسحبت «الجنايات» الأخرى وفعلت بها مثل ذلك وناولتها رئيس القلم الجنائي وأنا أقول في نبرة خرجت ساخرة مريرة على الرغم مني:

– مبسوط! أدحنا خلاص سددنا كشف الجنايات!

انتهى

يوميات نائب في الأرياف
في نظر النقاد الأوروبيين

تحت عنوان «نائب في ريف مصر» علق الكاتب الصحافي الفرنسي المشهور «جان لا كوثور» على الطبعة الأخيرة من الترجمة الفرنسية لـ «يوميات نائب في الأرياف» في باريس.. في مقال نشرته صحيفة «الموند» بتاريخ 15 يناير 1975.. قال:

في توفيق الحكيم يتغلب الكاتب القصصي والشاهد قوي الملاحظة، خفيف الروح، مع أقدم مدينة قامت على الزراعة.. والكتاب هو تحفته التي أخرجتها دار مصرية للنشر منذ ثلاثين عاماً، يقدمه «جاستون ويت» و«سليم حسن» في الثوب الأنيق المعهود وبعنوان «يوميات نائب في الأرياف».. لكن بعد شيء من التعديل.. لست أدري لماذا؟!

على أن مدير النشر «جان مالوري» كان موفقاً تماماً عندما نشره في مجموعة الإنسانية ليجاور توفيق الحكيم خلاصة الكتَّاب الذين كتبوا في هذا المجال.. فالكتاب هو قبل كل شيء وثيقة «انثروبولوجية» عظيمة.. وصورة من أكثر الصور أمانة، وأبلغها تأثيراً، لمجتمع القرية في مصر.. بسيئاته

ومباهجه.. بحماقاته وروح التكافل التي تثير الإعجاب فيه.. خلافاته وتماسكه.. وإخلاصه لكل هذه السمات فيه من زمن بعيد..

ولأن توفيق الحكيم متفائل في سخريته، ولأن مصريته من العمق بحيث يمكنه أن يجد في أقسى صور الشقاء أسباباً للضحك، فإن يومياته هذه يمكن أن تعتبر من الأدب الفكاهي الممتاز.. إنها تذكرنا بأعمال «تشيكوف» و«جوجول». تحقيقاته الجنائية من قرية إلى قرية هي مزيج من النكتة وتقطيب الوجه.. وأحياناً ضربات العصا.. روح الفكاهة طبع أصيل.. والتعليق اللاذع أسرع من رد الطرف!

في أغوار شقائهم يبدأ أولئك الناس البسطاء بالضحك من معذبيهم.. وقبل أن يتناولوا الحبل الذي سيشنقونهم به!. فإذا ضحكنا معهم، ومع المؤلف.. وطوينا الكتاب.. فإننا نأخذ نستشعر شحنة الغضب والرفض التي ضمنها النائب توفيق وثيقته!

الكتاب مؤلم.. بما يذكره صراحة وما يترك لك أن تفهمه.. كذلك المقدمة القصيرة التي كتبها المؤلف لهذه الطبعة الأخيرة «وهو قد كتبه عام 1940» وحيث يقول إن شيئاً لم يتغير بعد لدرجة تذكر في ذلك العالم الغارق في الوحل.. حتى الاختناق!. والكتاب هام جداً لأن الكثير في مصر، وعن الحقيقة، تجده في تلك اليوميات الحية أكثر كثيراً مما يمكن أن تجده في كتب سياسية تصدر عن ذلك الشعب الفريد في وادي النيل.. والذي يبدأ عادة بالضحك من مصائبه لكنه في النهاية يجد الوسيلة التي يسترد بها الحياة!

مقتطفات من النقد الإنجليزي:

«.. يعتبر توفيق الحكيم أكبر الروائيين المصريين الأحياء. و«يوميات نائب في الأرياف» هو أول كتبه التي نقلت ونشرت في اللغة الإنجليزية. ما أعجب وأصدق كل هذا الذي في الكتاب!..».

«إنها المهزلة الخالدة التي تصور فساد الأداة الحكومية وعجز النظم الإدارية عن تحقيق العدالة بين جموع الفلاحين. إن تصوير توفيق الحكيم لرجال الإدارة وانشغالهم بالحملة الانتخابية عن واجبهم لينطوي على أكثر من مجرد الاستنكار.. وإن في تصويره للعبث بالجثث لأكثر من مجرد الاحتجاج. وكما حدث في القرن التاسع عشر من الكتَّاب الروس، وكما حدث مع كاتبنا الإنجليزي (ديكنز) يشعر الأديب مرهف الحس وسط الاضطراب وفي أجواء الظلم أن الشفقة على المظلومين لا تكفي، وأن الغضب على الظالمين لا يجدي، فيتخذ من السخرية اللاذعة سلاحاً لتحقيق ما يهدف إليه من التنبيه والتحذير والإصلاح. وقد كان توفيق الحكيم في هذه الناحية رائعاً، فقد زخر كتابه بالسخرية اللاذعة ولكنها سخرية اتخذ منها سلاحاً للهجوم..».

(ب. هـ. نيوباي)

مجلة «ذي لسنر» 7 أغسطس سنة 1947

«..«يوميات نائب في الأرياف» ترينا الفقر والظلم في الريف المصري وما يلقاه أبناؤه من عنت وعسف من جانب الإدارة بسبب تطبيق نظم لم تراع عند وضعها أحوالهم وظروفهم، صيغت في قالب ذكريات موظف حكومي مصري يعمل في سلك القضاء. إن المرارة والسخرية التي رسم بهما توفيق الحكيم هذه الصور لا يمكن أن تنسى».

(د. س. سافاج)

مجلة «سبكتاتور» 18 يوليو سنة 1947

مقتطفات من النقد الفرنسي:

«.. هو ديكنز وادي النيل.. بل هو «كورتلين» أيضاً. لأن روح الفكاهة في تصوير مجالس القضاء تجدها عنده كثيرة بطرق منوعة.. فالكتاب مليء

بالصور المرسومة بريشة السخرية، والمأساة فيه رابضة في جو مفعم بالأسرار. على أن الأشخاص الشعبيين ومن يعيش في محيطهم من آدميين هم الذين عنى المؤلف بخلقهم خلقاً نابضاً مؤثراً.. إن «كورتلين» المصري، وهو – والحق يقال – أعمق شاعرية من كاتبنا الفرنسي، يثور لهذه الفوضى التي نتجت في الريف المصري، وإن توفيق الحكيم قد استخرج من كل ذلك الحجج التي تحتم الإصلاح.

«وهذه ليست كل صفات هذا الكاتب الذي يعتبر ممثلاً لأدب مصر المعاصرة».

(أندريه روسو)

«فرنسيس ستراسيون» 29 إبريل سنة 1950

«.. إنها صورة حية، ساخرة، قاسية أحياناً لدنيا الريف المصري.. وإن هذه الدنيا لتتحرك في صفحات هذا الكتاب في حيوية مدهشة تجعل القارئ ينسى أحياناً المقاصد الإصلاحية التي حركت توفيق الحكيم.. فإن الذي يعلق بذاكرة القارئ هو قوة السرد والخلق والإبراز والصدق ودقة الملاحظة والقدرة في إدارة القصة، على أن توفيق الحكيم إنما يكتب ليحتج وينقد ويتهم».

(رمون فرنانديز)

جريدة «ماريان» 9 أغسطس سنة 1939